التحوّلات السياسية في عهد معاوية بن أبي سفيان:
دراسة لطبيعة العلاقات
بين القيادتين السياسية والعلمية

سباهتش عمر*

مدخل

لقد جلبت "الفتنة" التي وقعت بين الصحابة فيما يعرف بموقعة الجمل وموقعة صفين، وما رافقها من الأحداث اهتمامات الباحثين المسلمين وغيرهم –قديماً وحديثاً–، ولا تزال تشهد دراسات تلك الحقبة التاريخية تقدماً مطرداً، إذ تتعدد الآراء والتوجهات حول الموضوع بكثرة نزعات وغايات ومناهج مختلف الباحثين. وكذلك صارت مكانة القيادة العلمية في المجتمع الإسلامي ودورها في صياغة التاريخ الإسلامي موضع اهتمام كثير من الناس–قديماً وحديثاً–، ولا سيما تلك الجوانب التي تتعلق بطبيعة علاقتهم بالقيادة السياسية إبان الأزمات والتوترات السياسية الداخلية المتباينة الأبعاد والدواعي والصيغ. ولعل كثرة الدراسات التي اهتمت بالقضية من جانب، وأهمية القضية في حدّ ذاتها من جانب آخر، قد دفعتني على كتابة هذا البحث الذي عنونته بـ "التحوّلات السياسية في عهد معاوية بن أبي سفيان: دراسة لطبيعة العلاقات بين القيادتين السياسية والعلمية". وكما يبدو من العنوان فإنني أودّ أن أكتشف إن كانت هناك علاقة بين زوال الخلافة الراشدة ثم قيام الدولة الأموية على أنقاضها وبين تشكّل نشوء وتوسع الفصام بين القيادتين السياسية والعلمية في العصور اللاحقة. ومما لا ريب فيه أن الأمر لم يكن هيناً؛ هنالك افتعالات وافتراءات كثيرة وجدت طريقها إلى مصادرنا التاريخية على أيدي الأحزاب والفئات الدينية والسياسية المختلفة الناشئة، أو وُضعت بذور نشأتها حين كانت الفتنة في عنفوانها، لتثبت هذه الأحزاب والفئات مواقفها ثم تروج بها مواقفها وتصوراتها إزاء مواقف وتصورات الآخرين. وعليه، فإن المنهج الأليق لمعالجة هذا الموضوع هو المنهج التاريخي التحليلي النقدي الاستنباطي، وذلك إن أردنا في النهاية أن نحصل على آراء علمية موضوعية وتصورات سديدة سليمة.

إنّ المقصود من القيادة السياسية في هذا البحث تلك النخبة السياسية التي كانت تتولى مختلف شؤون الأمة الإسلامية، والتي كان يتزعمها الخليفة معاوية بن أبي سفيان وغيره من أعضاء الأسرة الأموية. وبالنسبة إلى القيادة

---

* دكتوراة في التاريخ الإسلامي من جامعة ماليزيا 1999. محاضر في كلية معارف الوحي الإسلامي في الجامعة الإسلامية العالمية في كوالالامبور.

العلمية فنقصد بها أولئك الصحابة والتابعين الكرام الذين تعلموا دينهم فهماً وحفظاً وتطبيقاً فهم لم يترددوا لحظةً واحدةً في صرف كلّ ممتلكاتهم المادية وطاقاتهم المعنوية؛ لإحراز ذلك الغرض، صاروا أئمة مُتّبعين. إن الفترة التي نعالجها هب الفترة التي شهدت تغيراً ذا شأن وخطر على المجتمع الإسلامي الجديد، بحيث إن كثيراً من المسلمين أُخذوا على حين غِرة وعجزوا منذهلين عن تشخيص الداء وتحديد وجه الحقّ في الصراعات الجارية. ولم يكن ذلك التغير إلا في الوازع، على حدّ تعبير ابن خلدون،[1] فبعد أن كان ديناً انقلب عصبيةً وسيفاً، وبعبارة أخرى، بعد أن كان الناس يتصرفون بوازع الدين، والخلافة شورى بينهم، ينتخبون من يرونه أليق لها، صار الحكم مستنداً إلى العصبية والقوة والدهاء، غير أن الدولة الجديدة كانت وظلت دولة إسلامية تستمد قوتها الروحية والمادية والفكرية واتجاهاتها ودستورها من الإسلام، كما أنّ مقاصد الخلافة وأهدافها بقيت فيها، وإن أصابها الاختلال الضئيل في بعض الجوانب.

وإذْ إنّ هذه الفترة مثّلت بداية زوال جيل الصحابة واستهلال جيل التابعين، رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فإنه متعذر جدّاً على الباحث أن يرسم خطاً واضحاً يفصل بين من يمكن إدراجه تحت مفهوم القيادة العلمية ومن يمكن وضعه على مرتبة أدنى، على أننا اقتصرنا على إبراز من صار منهم أئمة مُتّبعين، ومن كان يتطلع إليهم الناس– ولا سيما في حقبة الفتن–ليتلقوا منهم إرشادات وتوجيهات في قضايا ومجالات شتى. كما أنّ شدة وسعة الفتن الدموية التي سبقت وأنتجت خلافة معاوية تمثل صعوبة كبيرة أخرى أمام الباحث وهو يحاول أن يميز بشكل دقيق بين القيادة العلمية والمعارضة السياسية، باعتبار أن كثيراً من أعضاء القيادة العلمية كانوا في نفس الوقت يشاركون بصور ووسائل متباينة ودرجات متفاوتة في معارضة سياسات الأمويين.

إن القيادة العلمية وإن بايعت معاوية فقد زهدت في التعامل المطلق مع القيادة السياسية لأنها عرفت أن الحكم الجديد قد نتج عن الفتن والحروب الأهلية، وأنه لم يكن تجسيداً نموذجياً للمبادئ والمفاهيم الأساسية المتمثلة في القرآن والسنة وخبرات واسعة للخلفاء السابقين. وأملت القيادة العلمية أن حكم معاوية كما هو مؤقت في دوامه فكذلك في نفوذه، ومن ثمّ فإن الأمور ستبدأ بذهابه في التحسن وتعود إلى مسارها الأولى. ولكن لم يلبث معاوية أن جزم على أن يبايع لابنه يزيد بولاية العهد حتى اهتزت وارتخت العلاقات بين الطرفين، وإذْ إنّ القيادة العلمية كانت تعاين تلك المبادرة هزيمةً لها وللخلافة الراشدة التي كانت تعمل لإعادتها، وفوزاً لمعاوية واستحكاماً لطرق حكمه. فإنه يمكن القول

---

[1] ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر، بيروت، دون عام الطبع: ص202–207 (موضوع انقلاب الخلافة إلى الملك).

إن هذه الفترة شهدت وضع بعض بذور الفصام بين القيادتين السياسية والعلمية، بيد أنها افتقرت إلى وقت معين وملابسات خصبة لتنمو وتنضج وتثمر بعضاً من الثمرات.

استناد معاوية على القوة والدهاء في الحكم

إن معركة الجمل عام 36هـ[2] ثم معركة صفين عام 37هـ[3] أثارتا من المشاكل في الدولة الإسلامية أكثر مما حلّتا، ولم يستوف أي طرف من الأطراف مطلبه في القتال مما يمكنه أن يدعي لنفسه الفوز والانتصار على غيره.

فالزبير وطلحة وعائشة أمّ المؤمنين في معركة الجمل، ومعاوية في معركة صفين، وكل من كان على شاكلتهم في أمصار الدولة الإسلامية —سواء شارك معهم مادياً أو معنوياً في الحربين المذكورتين–لم يوفقوا إلى تشخيص قتلة عثمان بن عفان والقبض عليهم كما كانوا يعلنون منذ أول وهلة من الأزمة. على أنهم لأجل ذلك العجز، ولا سيما معاوية، انتهوا إلى اتهام بعض أنصار علي بن أبي طالب بتخطيط قتل عثمان، إذ أن علياً بعد أن اختاره جُلّ المهاجرين والأنصار خليفةً في إثر احتضار عثمان كان يرى تأجيلاً مؤقتاً لقضية الطلب بدم الخليفة المقتول واسترعاء الانتباه إلى قضايا أخرى أضخم وأهمّ لحياة الجماعة وأفرادها حتى تتهيأ الظروف ويتأتى له ولجملة المسلمين التصدي لعلاج القضية الأولى علاجاً فعّالاً ومأموناً.

ومن ناحية أخرى، بسبب انتكاس عدد من جنوده، ثم بسبب تعنت مناوئيه في درء سياساته وإلحاحه على إنفاذ طلباتهم، لم تثمر كذلك الحربان المذكورتان ما كان يريده ويخططه علي، الخليفة الجديد، من تهدئة الفتنة الناشئة وصيانة وحدة المسلمين وعدم تفرقة كلمتهم وتصدع بنيانهم. ثم إن اغتيال الخليفة على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي زاد التطورات السياسية في الدولة تعقيداً وتوتراً بصورة عامة بحيث صار جليّاً أن الدولة الإسلامية وجدت

---

[2] ابن الاثير: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عب الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987: ج3 ص99–113. أبو الفرج ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992: ج5 ص87–93).

[3] أبوالفرج ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: ج5 ص117–123. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار بيروت، بيروت، 1980: ج2 ص184–190. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج3 ص201–211. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابي الفضل إبراهيم، دار المعارف. (1963: ج5 ص5–70).

نفسها من جديد أمام تحديات صعبة وشائكة تطلبت دون أي تأجيل وجود قيادة قوية متمكنة من حقن الدماء وتخليص الناس مما فيه من الحروب والفتن.

وبعد مقتل الخليفة علي بن أبي طالب لم يلبث أن أسرع معاوية – حسب زعمه وليّ ووارث الخليفة عثمان المقتول ظلماً–إلى الانفراد باحتلال منصب الخليفة لما لديه من خبرة سياسية وما توافر له من مناصرة من قبل المسلمين في سورية معقل سلطانه، ومن قبل معظم سكان مصر حيث كان عمرو بن العاص وإليه ومهندي تصميم عبور مقاليد الحكم إليه. كلّ هذا مقابل ضعف وتدهور بقية الأحزاب السياسية التي كثيراً ما كانت تفتقد العصبية القبلية والدينية مما جعلها تعاني من داء الخلافات الداخلية مثل شيعة علي،[4] أو لم تستطع أن تتمتع في أي حين من الأحيان بتأييد كافٍ من الناس بسبب الغلوّ والإفراط والتشدد في مواقفها الدينية والسياسية مثل الخوارج، فضلاً عن كثير من المهاجرين والأنصار البارزين الذين اعتزلوا الفتن والحروب أول ما استهلت رافضين سفك دم مسلم على يد مسلم آخر، وشقّ عصا المسلمين وتفرقة ملئِهم، بصرف النظر عن طبيعة الدواعي والأسباب لكل ذلك، راجين ومنتظرين استقامة الأمور ليدخلوا فيما دخل فيه سائر المسلمين ويبايعوا من بايعوه. لأجل كل هذه العوامل، بالإضافة إلى الطموح السياسي المقرون بالمقدرة والموهبة عند معاوية، سرعان ما تسلّم بقوةٍ مقاليد الحكم وسرعان ما آل إليه الأمر.[5]

فلما أفضى الحكم إلى معاوية أدرك أنه من المتعذر جداً حل مقبول دائم وشامل يمكن به إيقاف الفتن لتباين وتناقض أهداف مختلف الفئات التي لها صلة بها، حيث كان شبه مستحيل إرضاء مطامعهم السياسية أو التوفيق فيما بينها. وفي نحو من أربع سنوات متأزمة، تمت عملية تحول الحكم إلى معاوية وذلك عن طريق القوة والمغالبة حيناً وعن طريق الحيل والدهاء اللباقة أحياناً أخرى، وعادة ما كان هو نفسه يزاول ذلك أو وزراؤه وقواده وخاصّته وسائر أهل بيته. ونكتفي هنا فقط بذكر رفع المصاحف والدعوة إلى حكم القرآن بينه وبين علي إبان وقعة صفين، كما لا يفوتنا ما قام به معاوية من توظيف وسائل متباينة لاستمالة شخصيات بارزة ذات نفوذ سياسي واجتماعي وديني كبير. ولم يندر أن كان من هؤلاء من بايع علياً في بادئ الأمر وحارب معه، أو في حالات أخرى من اعتزل الفتنة مطلقاً ولم

---

4 سجلت كتب التاريخ سوء التزام وانضباط بعض طوائف جيش علي –بل أتباعه جملة–. وقد راحوا بعد اغتيال علي إلى الحسن بن علي ليبايعوه خليفةً بعد أبيه، على أنه معروف أن من اسباب تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية كانت اضطراب أمر أنصاره واختلال موقفهم بين النصرة والقعود. (انظر.. ذلك: ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج3 ص271–273. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي: ج2 215. ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، دون سنة: ج8 ص16).

5 القاضي أبو بكر بن العربي: العواصم من القواصم، مكة المكرمة، 1374هـ: ص202–207.

ينحز إلى أحد الفريقين.[6] كما استيقن معاوية بأن ترويج وتطبيق بعض جوانب سياسته، ثم بعد ذلك بقائه كإمام وقائد المسلمين، كان إلى حد بعيد منوطاً بمدى استمرار استخدام ما كان يستخدمه من الوسائل والأساليب هو واللذين أيدوه ونصروه حينما واجهوا الفئات المعارضة ولا سيما معارضة شيعة علي والخوارج المبعثرة الشُعب في العراق والحجاز. وعليه، اصطبغ حكم معاوية الذي استغرق نحواً من عشرين عاماً بصبغة لم تعرفها عهود من سبقه من الخلفاء، وهو الحكم المستند، قبل كل شيء على القوة والشدة والحيل والدهاء واللباقة، وذلك ابتغاء إيقاف الفتن والاختلاف وحقن دماء المسلمين، ثم استقرار واستقامة أمورهم في جميع مجالات الحياة. وقد صار ذلك النوع من السياسة —حسب اجتهاد معاوية–ضرورةً، لأن المجتمع الإسلامي كان يشهد تغيرات وتحولات اقتضت وجود سياسة حاسمة لمواجهتها. ومن أبرز تلك التغيرات ظهور جيل جديد من الناس وهو غير جيل أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو جيل عاش في عصر غير عصرهم، بما لم يتصفوا به من الصفات. وقد اقترن ظهور هذا الجيل الجديد بظهور عقلية جديدة للحياة، وهي العقلية المخالفة للعقلية التي كانت سائدة في المجتمع زمن ما قبل الفتنة. ولذلك يقول الزهري عن معاوية أنه كان أحد الدهاة الممتازين في الفتنة،[7] وكذلك تصريح الشعبي.[8] ويقول ابن خلدون إنه أول خلفاء المغالبة والعصبية لأجل العصبية التي حدثت لعصره، وأما قبل ذلك فكانت الخلافة اختياراً واجتماعاً.[9]

---

[6] نشير هنا على سبيل المثال إلى الأشعث بن قيس الكندي، أحد زعماء معارضة علي في صفين، وقد كان معاوية استماله وكتب إليه ودعاه إلى نفسه. هو الذي قال لعلي لما رفض دعوة معاوية غلى أن يحكم كتاب الله بينهما: "والله لئن لم تجبهم انصرفت عنك". (انظر اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي: ج2 ص188 و189). ثم نشير إلى عمرو بن العاص والي مصر لمعاوية الذي اعتزل الفتنة حتى استماله معاوية ورغبه في الانخراط في زمرته. (انظر أبا حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دون مكان وعام الطبع: ص157 و158). ونلمح أيضاً إلى المغيرة بن شعبة والي الكوفة وزياد بن أبيه والي البصرة اللذين سيأتي الحديث عنهما بشيء من التفصيل في ثنايا البحث.

[7] بقية الدهاة الذين يذكرهم الزهري هم: عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وكانا مع معاوية، وقيس بن سعد بن عبادة، وعبد الله بن بديل بن ورقاء، وكانا مع علي. (انظر ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص50. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، دار الفكر، دمشق، 1989: ج25 ص156. الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من العلماء، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة، 1990: ج3 ص22).

[8] بقية الدهاة الذين يذكرهم الشعبي هم: عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه، وكلهم كانوا مع معاوية. أما معاوية فللحلم والأناة، وأما عمرو فللمعضلات، وأما المغيرة فللمبادهة، وأما زياد فللكبير والصغير. (السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1952: ص203. الذهبي: تاريخ الإسلام، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990: ج4 ص123. ابن تغري الأتابكي: النجوم الزاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، مصر، دون سنة الطبع: ج1 116).

[9] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مؤسسة جمّال، بيروت، 1979: ج2 ص188.

إن أول وأكبر عقبة صعبة الاجتياز في سبيل استثمار معاوية بزمام الحكم كان بلا مرية الحسن بن علي، الذي اجتمع الناس إليه بعد قتل أبيه فبايعوه على كتاب الله تعالى وسنة نبيه.[10] إلا أن الحسن لم يحرص كل الحرص على الخلافة، علماً أن معاوية، بعد أن أُخبر بمقتل علي، لم يلبث أن تجهز وزحف في أهل الشام إلى الكوفة يريد مواجهة من ظلّ يرفضه هناك ولم يره خليفةً شرعيّاً للمسلمين. كما ساهم في عدم حرص الحسن على طلب الحكم ومنافسة معاوية يأسه من جيشه لما رأى ما بكثير منهم من كراهية للخروج ونكول وتواكل عن القتال فقام فيهم خطيباً بالمدائن وهم قد خرجوا لمحاربة جيش معاوية، ثم قال:"أيها الناس، إني قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة، وإني ناظر لكم كنظري لنفسي، وأرى رأياً فلا تردّوا عليّ رأيي، إن الذي تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة، ورأي أكثركم قد نكل عن الحرب، وفشل عن القتال، ولست أرى أن أحملكم على ما تكرهون".[11] وعلى رأس كل ذلك، لم يكن في نية الحسن منذ أول لحظة أن يقاتل أحداً ويسفك دماء المسلمين، ثم يوسع الفجوة ويثير البغضاء والعداوة أكثر فيما بين الفرق المتنازعة ولكن غلبه الناس على رأيه فقبل بيعتهم، ثمّ بعد ذلك خرج مكرهاً لمواجهة جيش معاوية. ويتضح لنا استنكاف الحسن عن تولي الخلافة في الظروف التي كانت سائدة حينئذ في الدولة، واستعداده للتنازل عن طلبها لصالح من هو أقوى منه وأطمح إليها منه حتى يحقن الدم المسلم وتجتمع الكلمة على أمير واحد، في ردّه على من بايعه إذ قال لهم:" تبايعون لي على السمع والطاعة، وتحاربون من حاربت، وتسالمون من سالمت".[12] فارتاب الناس وقالوا:"ما هذا لكم بصاحب وما يريد القتال".[13]

فلما رأى معاوية أن شيعة علي الملتفة بعد مقتله حول ابنه الحسن لم تعد تمثل له ينبوع الخطر العظيم شرع في اغتنام تلك السانحة الذهبية وتحقيق سياسته، أي استقلاله بقيادة المسلمين جميعاً، مجنداً في ذلك جملة ما لديه من الطاقات والموارد. فأول ما أقدم عليه كان التجهيز والخروج مع جيشه القوي نحو العراق للقتال. على أنه عدّل خطته هذه فور ما أحيط علماً بأن الحسن يستنكف عن القتال، وأنه إنما يبتغي أن ينزل عن ادعاء الخلافة لنفسه تحت شروط معينة، ثم يصالح القيادة السياسية في سورية ويقدم لها مبايعته وانقياده. فقبل معاوية اقتراحات الحسن هذه

---

10 الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص158.

11 أبوحنيفة الدينوري: الأخبار الطوال: ص216-217.

12 ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون: ج2 ص186. ابن قتيبة الدينوري (يشكّ بعض الباحثين في صحّة نسبة الكتاب إليه): الإمامة والسياسة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1937: ص170.

13 ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون: ج2 ص186.

وبالمقابل منح له دون أي تردّد كل ما اشترطه عليه لنفسه ولأهل بيته. وكانت الشروط الرئيسية على ما يبدو من المصادر التاريخية: ألا يأخذ معاوية أحداً من أهل العراق بإحنة، وأن يؤمن الأسود والأحمر، وأن يعمل في الناس بالقرآن والسنة وحسب الإمكان بسير الخلفاء السابقين، وأن يجعل للحسن ما في بيت ماله في الكوفة وخراج الأهواز أو دار أبجرد مسلماً في كل يوم، وأن لا يذكر أباه إلا بخير.[14] بيد أن بعض المصادر تشير إلى أن الحسن اصطلح مع معاوية على أن له الخلافة ما كان حياً، فإذا مات فالأمر يعود إلى الحسن.[15] غير أننا لا نسلّم بصحّة هذا الشرط لأجل أسباب أربعة تالية:

السبب الأول: إن هذا الشرط، مع أهميته السياسية والدينية الكبرى، لا تورده بأي شكل من الأشكال المصادر التاريخية الرئيسية مثل تاريخ الطبري، وتاريخ اليعقوبي، وتاريخ المسعودي، وتاريخ ابن الأثير، وتاريخ ابن خلدون وغيرهم. ولم يذكره الطبري رغم أنه دائماً يُورد الروايات المختلفة حتى المتضادة–مع إسنادها–عن كلّ حادث تقريباً، ولا سيما إذا كانت الحوادث ذات أهمية سياسية ودينية. وبالنسبة إلى ابن كثير فقد ذكر هذا الشرط، لكن ليس ضمن الشروط التي يراها صحيحة.[16] وإنما ضمن الشروط التي استخرجها من جملة ما اطلع عليه من الروايات حتى لو كانت ضعيفة، أو مرفوضة، أو متناقضة، أو مستبعدة–شأنه في ذلك المنهج شأن الطبري. في حين يمكن أن نستنتج من سياق استعراض تلك الروايات أن ابن كثير لا يسلّم بصحّة الرواية التي يرد فيها الشرط المذكور، مع أنه يكفّ عن الطعن فيها.[17]

السبب الثاني: لو صح هذا الشرط لكان من المتوقع أن يتولى الحسن شيئاً ولو ضئيلاً وفي أي شكل من الأشكال، من شؤون الدولة التي قد سبق أن صالح وبايع قيادته السياسية، إذ إنه وارث شرعي لمقاليد الحكم بعد ذهاب معاوية. ولكان عندئذ قادراً على أن يشرع –بموجب إمكاناته– في تقريب بعض الفرق المتنازعة من بعض

---

14 قارن الشروط الواردة في كل من: ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص16. الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص160. الكوفي: كتاب الفتوح، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، 1969: ج4 ص159. أبوحنيفة الدينوري: الأخبار الطوال: ص218. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج3 ص272. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون: ج2 ص186. ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، دون سنة الطبع: ج2 ص66.

15 السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص191. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص171.

16 انظر الشروط التي سلّم بها ابن كثير في: ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص16.

17 المرجع نفسه: ج8 ص42-43.

وتسوية الفروق وسوء التفاهم فيما بينها.ونذكر في هذا السياق أن سبباً من أسباب تنازل الحسن عن طلب الحكم كانت ميوله إلى حقن الدماء وإيقاف الاختلاف والفتنة والتقاتل بين المسلمين، وهو ما يحقق معجزة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذي يُروى عنه أنه قال يوماً عن الحسن:"إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين".[18] وعلىه، سُميت السنة التي وقع فيها الصلح بين الحسن وبين معاوية، أي سنة أربعين، بسنة الجماعة لاجتماع كلمة المسلمين فيها على معاوية. ولئن تنازل الحسن عن الخلافة مؤقتاً فقط–كما هو مدلول الشرط المشار إليه–لكان طبيعياً أن يظل مهتماً بالتطورات السياسية في الدولة مؤثراً فيها ومتأثراً بها. كما كان طبيعياً لو أنه أعان، بأي أسلوب من الأساليب، القيادة السياسية القائمة على تطبيق ما جرى الاتفاق عليه بينه وبينها، أو تطبيق أي برنامج أو مشروع سياسي مفيد، وما أمكن لا محالة أن يكون عنده بمثابة استعدادات وتمرينات إضافية ليوم سيلقى فيه عبء رياسة المسلمين على عاتقه. ولكن، بعد أن تم الصلح بوقت يسير، غادر الحسن الكوفة حيث كان مقرّ شيعته وعاصمة خلافة أبيه وعاصمة خلافته إلى يوم الصلح، ومضى على المدينة حيث اعتزل الحياة السياسية اعتزالاً تاماً ولم يشأ أن يخوض فيها من طريق مباشر ولا غير مباشر. وقال في إثر مصالحة معاوية:"ما أنا بالراغب في ذلك (الخلافة)، ولو أردت هذا الأمر لم أسلّمه إليه".[19] ولأجل مواقف الحسن هذه اتهمه أصحابه بأنه مذلّ المؤمنين، وعار المؤمنين، ومذلّ العرب، ومخرج الناس من العدل إلى الجور والباطل، وتارك الحق الذي كان عليه، وما شابه ذلك.[20]

السبب الثالث: أن الحسن لم يكن من وجهة نظر معاوية إنساناً كُفؤاً للقيام بأداء واجبات الخلافة،[21] وعليه، فحين بايعه الناس في الكوفة خرج معاوية من الشام مع جيشه ليجبره على عزل نفسه. لم يكن إذن لائقاً بإمام المسلمين الذين بايعوه على السمع والطاعة أن ينوي الاستخلاف على أمور دينهم ودنياهم من هو عاجز وناقص.[22]

---

18 البخاري: صحيح البخاري، كتاب الصلح، حديث رقم 2505.

19 الكوفي: كتاب الفتوح: ج4 ص159.

20 انظر: الكبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص165. أبوالفرج ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: ج5 ص184. أبوحنيفة الدينوري: الأخبار الطوال: ص220–221. ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص20 و43. ابن تغري البابكي: النجوم الزاهرة: ج1 ص121. اليافعي: مرآة الجنان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1993: ج1 ص118.

21 الكوفي: كتاب الفتوح: ج4 ص152.

22 إن هذا الكلام لا يمكن أن يقال ضد ولاية العهد ليزيد، لأن يزيد – وفق اجتهاد أبيه وخليفة المسلمين معاوية –كان رجلاً مناسباً للخلافة، بل كان خير الناس، وفي استخلاف معاوية غياه مصالح كثيرة للأمة الإسلامية.

السبب الرابع: لوصح هذا الشرط لاستخدمته لا محالة معارضة معاوية في الحجاز حجّةً عليه حين أصرّ بوسائل مختلفة على دعوة الناس إلى بيعة ابنه يزيد. ولكن، على الرغم من كثرة وتكرّر المحاجّات بين الطرفين حول هذا الموضوع، وجهاً إلى وجه أحياناً وفي صورة مراسلات أحياناً أخرى، لا نستطيع أن نعثر على أنّ أحد أعضاء المعارضة قد استدلّ بالشرط المذكور على أنه ينبغي لمعاوية أن يستخلف على الناس شخصاً آخر دون أن يكون من أهل بيته، أو يجعل الأمر من بعده شورى بين المسلمين.[23]

ويرِد أن معاوية قبل أن يعلمه الحسن برغبته في المصالحة كان يحاول أن يستميل ويغرّر بالمال بعض الأشخاص البارزين في معسكره لكي تضعف وتنحط شوكته فيخذله جيشه في حالة ما لم يكن مناص من الحرب، وكذا يُجتنب أو على الأقل يُقلّل سفك الدماء. وعلى سبيل المثال يُروى أنه وجّه إلى قيس بن سعد، أمير جيش الحسن، يبذل له ألف ألف درهم على أن يصير معه أو ينصرف عنه. فأرسل إليه بالمال، على أنه رفض أن يلحق به أو ينصرف عنه. وكذلك أرسل معاوية بنفس المبلغ على عبيد الله بن عباس، أحد ولاة الحسن، يصده عن موالاة وتأييد زعيمه. كما كان معاوية يدسّ إلى معسكر الحسن من يتحدث أن قائد جيشه قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار معه، وفي الوقت نفسه كان يوجه إلى قيس بن سعد من يتحدث أن زعيمه الحسن قد صالح معاوية.[24] فلما وقعت المصالحة وانتهى الأمر إلى معاوية امتنع قيس ابن سعد مع جيشه عن بيعته، ولم يزل يمتنع حتى أرسل غليه معاوية بسجلٍّ قد ختم عليه في أسفله، فقال:"أكتب في هذا السجلّ ما شئت، فهو لك". فاشترط قيس في السجل له ولأصحابه الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يسأل مالاً. فأعطاهم معاوية ما سألوا.[25]

ومما لا ريب فيه أن معاوية كان يتعامل مع شيعة علي ثم ابنه الحسن في ضوء تعاملهم مع النظام القائم والذين تولوا تطبيق ذلك النظام. فبقدر ما كانوا يخالفون السلطة ويأبون انقيادهم ويهيجون الناس على عصيانهم بقدر ما

---

[23] انظر عن بعض المحاجّات والمجادلات حول موضوع بيعة يزيد بين معاوية وبين المعارضة في المدينة في: ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص173-201. الكوفي: كتاب الفتوح: ج4 ص224-249. ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995: ص131-134.

[24] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي: ج2 ص214-215.

[25] الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص164. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون: ج2 ص187. ويذكر أن معاوية كان يراسل قيس بن سعد ويكايده ويستميله إلى جانبه حتى زمن علي، وهو حينئذ أميره على مصر. (ابن تغري الأتابكي: النجوم الزاهرة: ج1 ص98-101).

عنّفت وتشددت السلطة في تعاملاتها معهم. وبالعكس، بقدر ما تحالفوا وأطاعوا سياسات الحكام بقدر ما طابت وحسنت مواقف وتصرفات هؤلاء تجاههم.

ونذكر في هذا الصدد حُجْر بن عدِيّ، من عظماء أصحاب عليّ، الذي اعتاد مع عصبته حصب[26] من كان من عمال معاوية يذمّ عليّاً ويُشيع عنه ما لم يلق به يوم الجمعة على منبر مسجد الكوفة، فضلاً عن ذمّهم معاوية وتبرّئهم منه ومن حكمه. أما المغيرة بن شُعبة، أول عامل لمعاوية هناك، فكان يحاول أن يترضّاهم بالأموال رغبةً في اجتناب القتل وسفك الدماء.[27] فلما مات المغيرة وجمع معاوية لزياد الكوفة إلى البصرة التي كان عليها يومئذ، واصل حُجْر وعصبته فعل ما كانوا يفعلونه آنفاً. فحسبهم زياد ووجّههم جميعاً–ثلاثة أو ستة أفراد بلا حُجْر –إلى معاوية. وكان معاوية قد استشار الناس فيهم فكان منهم من أشار عليه بالإعدام وكان منهم من أشار بتفريقهم في البلاد. فكتب معاوية إلى زياد كتاباً آخر في أمرهم، فأشار عليه بقتلهم إن كان له حاجة في ملك العراق، فعند ذلك أمر بقتلهم. فدخل الناس بعد أن وقع الأمر على معاوية معترضين على قتله حُجْراً وأصحابه زاعمين أنهم لم يكونوا أحدثوا ما استوجبوا به القتل. فكان جواب معاوية:"قدكنت هممت بالعفو عنهم إلا أن كان كتاب زياد ورد عليّ يعلمني أنهم رؤساء الفتنة، وأني قتلتهم اجتثثت الفتنة من أصلها".[28] وقال أيضاً: "وجدت في قتله صلاح الناس وخفت من فسادهم".[29] فلقيت عائشة أمّ المؤمنين معاوية بمكة فقالت له:" يا معاوية، أين كان حلمك عن حُجْر"؟ فقال لها: "يا أمّ المؤمنين، لم يحضرني رشيد".[30] وفي رواية أنه قال لها :" فقدته حين غاب عني من قومي مثلك يا أماه".[31]،[32]

---

26 أي الرمي بالحجارة والحصى.

27 أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال: ص223.

28 المرجع نفسه: ص223–224. ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص53–54. الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص253–256. أبوالفرج الأصبهاني: الإاني، تحقيق عدد من العلماء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون سنة الطبع: ج17 ص134–153.

29 الذهبي: تاريخ الإسلام: ج4 194.

30 الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص257.

31 ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص55. أبوالفرج الأصفهاني: الأغاني: ج17 ص154.

32 وحتى تورد بعض الروايات أن معاوية هو الذي دسّ إلى الحسن من سمّه. (المسعودي: مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، 1982: ج3 ص5. والمسعودي: التنبيه والغشراف، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981: ص276. السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص192) على أن ذلك، كما قال ابن كثير، أمر مستبعد وليس بصحيح. وقال ابن خلدون إنّ ذلك من أحاديث الشيعة وحاشا لمعاوية، الصحابي الجليل وكاتب الوحي، من ذلك. (أبن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص44. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون: ج2 ص187. القاضي أبوبكر بن العربي: العواصم من القواصم: ص213–214).

واعتمد معاوية أساليب القوة والشدة والدهاء واللباقة في الحكم طوال مدة خلافته ولا سيما في اللحظات الخطرة، واستعان في ذلك بشخصيات مقتدرة وموالية في وقت واحد، ممن كان دائماً حوله من وزرائه وبطانته وأهل بيته ومن ولاه على شؤون بعض الأقاليم مثل العراق والحجاز التي كانت تُعدُّ منذ استتباب الحكم في يد معاوية مراكز المناهضة ضد النظام القائم فولى مثلاً المغيرة بن شُعبة على الكوفة، معقل شيعة علي ومن بعده الحسن، لما قُتل علي وصالح معاوية الحسن بن علي، فلم يزل أميرها حتى مات في عام 50هـ. والمغيرة شخصية مشهورة بالدهاء والخبرة السياسية السابغة. أسلم عام الخندق وبعثه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد إسلام أهل الطائف هو وأبو سفيان ابن حرب فهدما اللات. وبعثه أبو بكر إلى البحرين، وشهد اليمامة واليرموك،وشهد القادسية في عصر عمر بن الخطاب، وولاه عمر فتوحاً كثيرة، فاستنابه عمر على البصرة ثم على الكوفة، واستمر به عثمان حيناً ثم عزله، فبقي معتزلاً عن الفتنة التي عقبت مقتل عثمانحتى كان أمر الحكمين يوم معركة صفين فلحق بمعاوية. ويرد عنه أيضاً أنه كان من الدهاة الممتازين في الفتنة[33] لحدّ أن أحد أصحابه قال عنه:"لو أنّ مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بمكر لخرج المغيرة من أبوابها كلها"[34] وهو الذي أشار على معاوية أن يبايع لابنه يزيد فبدا لمعاوية أن يأخذ بما أُشير عليه.[35]

واستعان معاوية في تنظيم وضبط ومراقبة البصرة حيث كان التذمر على النظام القائم شديداً جلياً والفسق ظاهراً فاشياً،[36] بشخصية قوية أخرى، ألا وهي زياد ابن أبيه. إن معاوية لم يولِّ زياداً البصرة إلا عام 45هـ، وقبل ذلك – منذ عام41هـ–كان عليها عبد الله بن عامر الذي كان ليناً كريماً سهل الولاية، لا يأخذ على أيدي السفهاء، ولا يعاقب على سلطانه، ولا يقطع لصاً، ففسدت البصرة بسبب ذلك أيام ولايته. فقيل له في ذلك، فقال :" أنا أتألف الناس، فكيف أنظر إلى رجل قد قطعت أباع وأخاه!"[37] وقد كان زياد رجلاً عالماً وخطيباً، كما كان أحد الدهاة عظيم السياسة قويّ الهيبة صحيح العقل سديداً شهماً فطناً بليغاً–كما نعته ابن الطقطقا–[38] لما كان يوليه الخليفة

---

33 السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص203. الذهبي: تاريخ الإسلام: ج4 ص123. الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص164. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: ج25 ص156.

34 ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص51. الطرطوشي: سراج الملوك، تحقيق محمد فتحي أبوبكر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1994: ج1 ص282.

35 ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص173.

36 الكبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص217.

37 المرجع نفسه: ج5 ص212.

38 ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية، دار بيروت، بيروت، 1980: ص111.

عمر بعض الأعمال فأحسنها. يُقال إنه حضر يوماً مجلس عمر وفيه أكابر الصحابة فخطب زياد خطبة بليغة لم يسمعوا بمثلها. فلما ولي علي الخلافة استعمل زياداً على فارس فضبطها وحمس قلاعها وقام فيها مقاماً مرضياً واشتهرت كفاءته. فساء معاوية أن يكون من أصحاب علي رجل مثل زياد أراده لنفسه. فظل يراسله ويرغّبه إلى زمرته ويستميله بكل وسائل ممكنة حتى قُتل علي فجدّ معاوية في استصفاء مودته. وأخيراً نجح معاوية في إلحاق زياد بزمرته، وذلك لأنه أذاع بعون عدد كبير من الشهود أن زياداً أيضاً ولد أبي سفيان الذي وقع في الجاهلية على سمية، أمّ زياد، فعقلت منه بزياد ثم وضعته على فراش زوجها عبيد، أبي زياد.[39] ويُقال عنه أيضاً إنه كان من الدهاة البارزين في الفتنة. وأما براعته وفضائله وحدّته وحتى عنفه في الحكم فجملتها تتجلى في خطبته التي ألقاها لما قدم إلى البصرة والياً عليها، وسنكتفي باقتطاف ختامها حيث تنعكس أهم جوانب سياسة زياد خاصةً وسياسة القيادة الأموية عامةً، يقول زياد:"...أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسةً، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولّينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم. واعلموا أني مهما قصرت عنه فإني لا أقصر عن ثلاث : لست محتجاً عن طال حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل، ولا حابساً رزقاً ولا عطاء عن إبانه، ولا مجمِّراً لكم بعثاً. فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبة لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى تصلحوا يصلحوا. ولا تشربوا قلوبكم بغضهم، فيشتد لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا حاجتكم،مع أنه لو استجيب لكم كان شراً لكم. أسأل الله أن يعين كلاً على كل، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنقذوه على أذلاله، وأيمُ الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي".[40]

وبجانب البصرة ولّى معاوية زياداً خراسان وسجستان، وأضاف إليه الهند والبحرين وعمان، كما أضاف إليه في آخر الأمر الكوفة، وذلك عام50هـ بعد وفاة المغيرة بن شعبة. وكان زياد، كما يصفه معظم المؤرخين، أول من شدّ أمر السلطان، وشيدّ الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم في العقوبة،وجرد السيف، وأخذ بالظنة، وعاقب على

---

39 انظر: المرجع نفسه: ص109 و110. الذهبي: تاريخ الغسلام: ج4 ص208-209.

40 الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص220 و221.

الشبهة، وخافه السفهاء والذعار خوفاً شديداً، وأمن الناس على أنفسهم ومتاعهم حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه.[41]

وبالنسبة إلى عمر بن العاص، فاتح مصر سنة 20هـ والعامل عليها لعمر ووقتاً يسيراً لعثمان، فهو لأجل فضائله السياسية والدينية كان مهندس تصميم تحول الخلافة إلى معاوية واستقرارها لديه، وكان معاوية يستعين به كثيراً حتى ماكادت تقع معضلة سياسية في الدولة إلى واستشاره معاوية فيها.[42] لقد كان عمرة في الحقيقة معتزلاً الفتنة أوّل ما بزغت حتى استماله معاوية ورغّبه إلى معسكره قبيل معركة صفين، فولاّه بالمقابل مصر التي فتحها في عصر عمر فولاّه عليها، ولم يزل والياً عليها حتى عزله عنها عثمان عام 25هـ.[43] ويبدو أن عمرو الوالي، ومصر الولاية، مثّلا في بعض الأوقات سنداً معنوياً ماديّاً لسورية، مركز الخلافة في مقاومة وضبط المعارضة ثم تمتين الحكم في الآفاق، وبالطبع تثبيت وتوطيد معاوية في كرسي الخلافة. وقد كتب معاوية يوماً إلى عمرو، وهو على مصر: "أما بعد، فإن سُؤّال أهل الحجاز، وزُوّار أهل العراق قد كثروا علي، وليس عندي فضل من أعطيات الجنود، فأعنّي بخراج مصر هذه السنة".[44]

وأما منطقة المدينة وضواحيها فنمط معارضة سكانها ضد حاضرة الخلافة في سورية تلوّن بلون خاصّ مخالف لأنماط المعارة في بعض الأمصار، وذلك لأن المدينة كانت مقرّ أكثرية الصحابة الكرام و، وذراريهم، كما كانت عاصمة الدولة الإسلامية منذ الهجرة إلى أيام علي، إذ حوّل علي عاصمة حكمه إلى الكوفة بعد أن بايعه أهل المدينة، غير أنها رغم ذلك ظلّت تؤدي دوراً ملحوظاً ومؤثراً إلى حدّ بعيد في توجيه وصياغة التطورات السياسية في الدولة الإسلامية. ولما كانت المدينة داراً لعدد كبير من المهاجرين والأنصار وأبنائهم فإن تلك الميزة كانت تجعلها في الوقت نفسه داراً لأغلبية الصفوة الدينية والعلمية التي بدونها وبدون استشارتها والاستعانة بها لم تستطع القيادة السياسية، حيثما كان مقرّها وأيّاً كانت قواعدها واتجاهاتها، أن تنجح نجاحاً وافياً في ترويج وإنفاذ برامجها ومشاريعها

---

41 انظر: المرجع نفسه: ج5 ص222. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج3 ص307. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون: ج3 ص8. أبوالفرج ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: ج5 ص212-213.

42 انظر: أبا حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال: ص157-158، 223. الكوفي: كتاب الفتوح: ج2 ص415-418. ابن العماد: ذرات الذهب، دار الفكر، 1988: ج1 ص53.

43 يقول اب نالطقطقا عن استمالة معاوية لعمرو: "وكان عمرو بن العاص أحد الدعاة وكان أول ما نشبت الفتنة بين أمير المؤمنين علي، عليه السلام، ومعاوية معتزلاً للفريقين. فرآى معاوية أن يستميله ويتقوى برايه ودهائه ومكره، فاستماله ووصل حبله بحبله، وولاه مصر". (ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية: ص105).

44 أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوالي: ص222.

السياسية., وهذا في حدّ ذاته ما أراد علي أن يقول لما اعترض عليه ابنه الحسن قائلاً:"...يا أبت أشرت عليك حين قتل عثمان وراح الناسي إليك وغدوا، وسألوك أن تقوم بهذا الأمر ألا تقبله حتى تأتيك طاعة جميع الناس في الآفاق..." فأجابه علي: "أما انتظاري طاعة جميع الناس من جميع الآفاق، فإن البيعة لا تكون إلا لمن حضر الحرمين من المهاجرين والأنصار، فإذا رضوا وسلموا وجب علي جميع الناس الرضا والتسليم.."[45] وكان ذلك أيضاً في ذهن علي إ كتب إلى معاوية في إحدى رسائله: "إن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر، وعمر، وعثمان، على ما بايعوا عليه. فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يردّ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل وسمّوه إماماً كان ذلك لله رضا، وإن خرج عن أمرهم خارج ردّوه إلى ما خرج عنه، فإن أبوا قاتلوه إلى أتباعه غير سبيل المؤمنين...".[46]

ولجل هذه المكانة الدينية والعلمية الرفيعة المدينة اعتبر الإمام مالك عمل أهلها مصدراً فقهياً يعتمد عليه في فتاواه. كما كان يرى أن أهل الحرمين إذا بايعوا لزمت البيعة أهل الإسلام.[47] وفي رسالة مالك من المدينة إلى الليث بن سعد في مصر ما يجلّ على عظم اعتماده على عمل أهل المدينة في فتاواه. وقد كتب إليه: "إنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن وأُحلّ الحلال وحُرّم الحرام إذ رسول الله بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل ويأمرهم فيطيعونه ويسنّ لهم فيتبعونه..ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولي المر من بعده فما نزل بهم مما علموا أنفذوه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه..ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبل ويتبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به لمن أرد لأحد خلافه للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لايجوز لأحد انتحالها ولا ادعاؤها...".[48]

وليس من العجب إذن أن كانت المدين مركز المناهضة الفريدة لسياسة معاوية، وفي جبهتها كان يقف المهاجرون والأنصار وأبناؤهم. وقد أشار عمرو بن العاص إلى الميول السياسية الجملة سكان المدينة حينما استشاره معاوية في أن يستنصرهم، فقال: "إنك إنما تكتب إلى نفر منهم راضين بعلي فلا يزيدهم كتابك إليهم إلا بصيرة ومحبة

---

45 المرجع نفسه: ص145-146.

46 ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق الدكتور عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983: ج5 ص80.

47 القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، ودار مكتبة الفكر، طرابلس، 1967: ج1 ص64-65.

48 المرجع نفسه: ج1 ص62.

لعلي، ومنهم من يهوى عثمان فلا يقدر أن يزيده على ماهو عليه، ومنهم معتزل عن علي وعثمان ولا يلتفت إلى كتابك".[49] وقد نوّه بهذه المواقف السياسية المعارضة لأهل الحجاز بصورة عامّة صعصعة بن صوحان، العالم بالعرب وبأحوالهم في الجاهلية وبعدها، لما سأله معاوية عن "أخبار أهل الحجاز" أجاب: "أسرع الناس إلى فتنة، وأضعفهم عنها، وأقلّهم غناء فيها، غير أن لهم ثباتاً في الدين، وتمسكاً بعروة اليقين، يتبعون الأئمة الأبرار، ويخلعون الفسقة الفجار".[50]

كما انه ليس من العجب تعاملُ معاوية مع أهل المدينة وقيادتها العلمية تعاملاً مخالفاً لتعامله مع الناس في الأقاليم الأخرى تبعاً لميولهم السياسية وتقديراً لتفانيهم البالغ في الشؤون الدينية والعلمية. فكثيراً ما كان يراسلهم ويغريهم بالمال، ولاسيما في الحالات المتأزمة، ليستجلب تأييدهم وعونهم. وكان يلتقي بهم شخصياً ويحاورهم بل يناظرهم كلما ذهب إلى مكّة معتمراً وإلى المدينة زائراً أو في مواسم الحج. وإذا عجز عن الحضور ومقابلتهم في مواسم الحج– لسبب من الأسباب– كان يستنيب من يتولى بدله هذه المهمة الحسّاسة. وفي السنة التي قرر معاوية أن يأخذ البيعة لابنه يزيد بولاية العهد، أي عام 50هـ،[51] أقام للناس الحج فأمر لمن بايع يزيد بجوائز جزيلة ولم يُعْط لمن انصرف عن البيعة مثل بعض بني هاشم.[52] وفي السن التالية، أي عام 51هـ، أوفد معاوية يزيد إلى الحجّ ففرق بمكة والمدينة أموالاً كمثيرة..ثم إنه انصرف وكثير من الناس عنه راضون".[53] ويقول ابن أعثم الكوفي عن سياسة معاوية هذه: "ولم يزل معاوية يوطِّن الناس على بيعة يزيد ويعطي المقارب ويداني المتباعد حتى مال إليه أكثر الناس وأجابوه إلى ذلك".[54]

فلما ولّى معاوية مروان بن الحكم على المدينة –وهو القارئ لكتاب الله والفقيه في دين الله، والشديد في حدود الله، والمتتبع في القضاء لقضايا عمر بن الخطاب[55]– أظهر انه فعلاً أدرك صميم مشكلة تلك المنطقة، ثم إنه نوى أن

---

49 الكوفي: كتاب الفتوح: ج2 ص415.

50 المسعودي: مروج الذهب: ج3 ص51.

51 إن الحسن بن علي قد توفي عام 49هـ ولم يلبث معاوية بعد ذلك إلا يسيراً حتى دعا الناس إلى بيعة يزيد. وثمة روايات تشير إلى أن معاوية قد همّ ببيعة يزيد قبيل وفاة الحسن إلا أنه أعرض عنها. (ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص180).

52 الكوفي: كتاب الفتوح: ج4 ص244-245.

53 المرجع نفسه: ج4 ص225.

54 المرجع نفسه: ج4 ص228.

55 الذهبي: تاريخ الإسلام: ج5 ص230.

يعالجها معالجةً لائقةً وفعّالةً، أي بوسائل سلمية، قائمة على الدهاء والعلم. وفي ضوء هذه السياسة المرنة يرد أن مروان كثيراً ما كان إذا وقعت معضلة، سياسةً كانت أو دينيةً، جمع من عنده من الصحابة فاستشارهم فيها،[56] مما جعل مروان يحظى بالقبول ويحفظ نظام الدولة ببناء علاقات طيبة مع أهل المدينة، ولاسيما مع قيادتها العلمية.[57] وهو الذي أقام للناس الحج محلّ الخليفة في سنين متعددة. إلا أنّ معاوية لم يكن دائماً راضياً عن وعن الأساليب التي كان يواجه بها بعض المسائل الطارئة، مثل مسألة إخراج البيعة من أهل المدينة يزيد،[58] لذلك عزله غير مرة ثم أعاده.[59] والشخص الذي كان غالباً يحلّ محل مروان في أثناء غيابه المؤقّت عن ولاية المدينة — وذلك مرّتين– كان سعيد بن العاص. كما أن هذا الاختيار يدلّ أيضاً على اهتمام معاوية البالغ بإقليم المدينة ضواحيها ومافيها من مناخ سياسي وديني وعلمي فذّ، إذ أن سعيداً كان يعدُّ من سادات المسلمين والأجود المشهورين، وكان عالماً فصيحاً، ومعلّماً للقرآن، وراوياً عن النبي صلى الله عليه وسلم وبعض كبار الصحابة لما جعله عثمان في من يكتب المصاحف.[60] وثمة روايات تورد أن زياداً طلب من معاوية أن يستنيبه على الحجاز ليضبطها كما ضبط له العراق بعد ما عزل معاوية أوّل مرّة مروان بن الحكم عن المدينة وولى عليها سعد بن العاص، غير أن معاوية لم يوافق على ذلك. فما بلغت أهل الحجاز أمنية زياد هذه خافوا خوفاً شديداً أن يتولى شؤونهم فيعسفهم كما عسف أهل العراق. وكان عبد الله بن عمر يقول للناس أن يرفعوا أيديهم فيدعوا الله أن يكفيهم يمين زياد، فدعا ابن عمر عليه والناي يؤمنون.[61]

---

56 ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص261.

57 ستتكلم عن طبيعة هذه العلاقات لاحقاً.

58 لما بايع معاوية يزيد بالشام كتب عن بيعته إلى الآفاق، فكتب إلى مروان في المدينة يأمره أن يجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة، ثم يبايعوا يزيد. فلما قرأ مروان كتاب معاوية أبي من ذلك وأبته قريش، فكتب إلى معاوية: "إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنك، فما رأيك". فلما بلغ معاوية كتاب مروان عرف أن ذلك من قبله، فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله. وفي رواية أن مروان طلب في رده من معاوية أن يتأتى في أمر يزيد وأن لا يعجل حتى يطالع أهل المدينة في ذلك. (انظر: ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص184. الكوفي: كتاب الفتوح: ج4 ص225).

59 ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص184.

60 انظر: ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص87.

61 ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص64. الطرطوشي: سراج الملوك: ج1 ص284. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي: ج2 ص229–230.

وقد أوصى معاوية ابنه يزيد بأن يحذو حذوه في سيرته هذه تجاه أهل الحجاز فقال له: "انظر في أهل الحجاز فهم أصلك وفرعك، فأكرم من قدم عليك منهم ومن غاب عنك فلا تجافِيهِمْ ولا تعقهم..."[62] وأما العراق فإن معاوية أوصاه قائلاً: "وانظر أهل العراق فإنهم لا يحبونك أبداً ولا ينصحونك ولكن دارهم مهما أمكنك واستطعت، وإن سألوك على كل يوم أن تعزل عنهم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل واحد هن أيسر وأخفّ من أن يشهر عليك مائة ألف سيف".[63]

العلاقات بين القيادتين السياسية والعلمية

لقد أفضى زمام الحكم إلى معاوية عن طريق الحروب والمغالبة والمكايد والدهاء، ووجدت القيادة العلمية نفسها أمام خيارين: الفوضى واستمرار الحروب الأهلية، أو الرضى والتسليم بسلطة تضمن السلام ووحدة الجماعة، وإن لم تكن من جمع الجوانب تجسيداً نموذجياً للمبادئ والمفاهيم الأساسية المتمثلة في القرآن والسنة وخبرات واسعة من التجربة التي مرّ بها المجتمع الإسلامي المبكّر ماقبل وقوع الفتنة. فاختارت واختار الناس اقتداءً بها الأمر الثاني من أجل الحفاظ على وحدة الأمّة، وحقن دماء المسلمين، وتحقيق الهدوء، والعمل على توفير ظروف حيث يمكن أن تتعمق وتتحقق التعاليم والمفاهيم الإسلامية الصافية. وها عبد الله بن عمر الذي سمع معاوية يجاهر بأنه أحقّ بأمر الخلافة من علي وغيره، فقال: "فحللت حُبوتي وهممت أن أقول: أحقّ بها الأمر من قاتلك وأباك على الإسلام، فشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدماء ويُحمل عني غير ذلك".[64]

إنّ هذا لا يعني أن عاوية لم يكن كُفُؤاً لمنصب الخلافة في عين القيادة العلمية، بل نقمت منه انه استأثر بمقاليد الحكم عن طريق غير شرعي، أي عن طريق الحرب والحيل والدهاء، وذلك مضادّ لأنماط اختيار من سبقه من الخلفاء، ولم ينتخبه طوعاً كثير من الناي، ولاسيّما من بين أهل الحجاز، حيث كان يتمّ عملياً قبل ذلك اختيار إمام المسلمين. مما نقمت منه انه بعد مقتل علي، واستتبت له الأمور لم يجعل أمر الإمامة شورى بين جميع المسلمين لينتخبوا لأنفسهم

---

62 الكوفي: كتاب الفتوح: ج4 ص263. وفي تاريخ الطبري: "...وتعاهد من غاب.." (الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص323) أو "...تعهد من غاب.." كما في "الفخري في الآداب السلطانية". (ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية: ص111).

63 الكوفي: كتاب الفتوح: ج4 ص263. الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص323. ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية: ص111.

64 البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، حديث رقم 3799.

من يرتضون، إذْ إنّ بعض الصحابة كانوا أفضل من معاوية ومن ثم أليق لاحتلال منصب الخلافة.[65] ولذلك فإن كثيراً من أعضاء القيادة العلمية بايعوا كارهين معاوية ولم ينقضوا بيعتهم وعهدهم متوقعين أنّ حكمه هو الحكم المؤقّت في دوامه من ثم نفوذه، وأنّ الأحداث ستعود بعد وفاقته إلى مسارها الأولى، فعليهم وعلى كل من لم يرض بها أن يصبر وينتظر لأنه يجب الأخذ برأ الجماعة، لأن ذلك أدعى للسلامة والعافية وأنفى للاختلاف والفرقة. وفي هذا قال الحسين بن علي لبعض الناس اليائسين الغاضبين حين صالح السن بن علي معاوية: "ليبسكن كل رجل منكم حلساً[66] من أحلاس بته ما دام معاوية حيّاً، فإنها بيعة كانت والله لها كارهاً، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم ورأينا ورأيتم".[67] ونوّه عن ذلك معاوية نفسه في أثناء إحدى زياراته للمدينة: "إن الناس أعطونا طاعة تحتها حقد وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، ومع كل إنسان سيف وهو يرى أنصاره، فإن نكثنا نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا يكون أو لنا".[68] كما أن معاوية علِم عِلْم اليقين أنه لم يكن أفضل المعاصرين من الصحابة علماً وديناً، على أنه أدلك أنه كان أجدرهم بإمامة المسلمين في زمنه. روى ابن كثير أن معاوية خطب عقب مبايعته فقال: "أيها الناس، ما أنا بخيركم، وإن مكنم لمن هو خير مني، عبد الله ابن عمر، وعبدي الله بن عمرو، وغيرهما من الأفاضل، ولمن عسى أن أكمون أنفعكم ولاية وأنكاكم في عدوكم وأدرككم حلباً".[69]

وعليه، حظِيت السلطة بعلاقات طيبة مع القيادة العلمية بحيث يرِد أن بعض العلماء كانوا أحياناً ومدّةً معيّنةً يتولّون بعض مناصب الدولة مثل الإمرة والقضاء، وكانوا يجاهدون تحت قيادة رجال معاوية، ومنهم من كانوا مستشارين لبعض عمال وولاة الدولة، كما كانوا يفدون على الخليفة ويختلفون إليه لتُقضى حاجاتهم. ونذكر على سبيل المثال عبد الله بن عباس الذي كان يتردّد على معاوية بدمشق أو إذا جاء معاوية إلى المدينة حاجّاً أو معتمراً

---

65 إن موقف جمهور علماء أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً من علي ومعاوية ومما جرى بينهما من الحروب الأهلية أن الصواب كان مع علي، ومعاوية معذور لأن كلّ ما وقع بينهما كان على سبيل الاجتهاد والرأي. بيد أنه من باب أولى عدم التبحر أو الإمساك المطلق عن جدال ما شجر بينهما، كما ذكر ابن تيمية، إذ كان لهما لما وقع عذر يخفى على جلّ الناس. فالخوض فيما شجر بينهما يوقع في نفوس كثير من الناس بغضاً وذماً، ويكون هو في ذلك مخطئاً، بل عاصياً، فيضر نفسه ومن خاض معه في ذلك. (انظر: الشيخ عبد الله الغنيمان: مختصر منهاج السنة لابن تيمية، دار الأرقم، Birmingham, UK، الطبعة الثالثة، 1995: ص319. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون: ج2 ص188. ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص129).

66 يقال فلان حلس من أحلاس البيت للذي لا يبرح البيت.

67 ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1، والسياسة: ج1، ص173.

68 البلاذري: أنساب الأشراف، دارالفكر، بيروت، 1996: ج5 ص133.

69 ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص137.

فيكرمه زائداً ويعطيه عطاء جزيلاً.[70] وغزا عبد الله بن عباس مع يزيد بن معاوية عام 49هـ بلاد الروم حتى بلغ وحاصرة جيش المسلمين القسطنطينية. وكان بجانب ابن عباس يؤمئذ خلق كثير من كبراء وسادات الصحابة منهم ابن عمرو، وابن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري، والحسين بن علي.[71] أما عبد الله بن عمر فكان يصلي خلف الحكام الأمويين ويؤدّي إليهم زكاة ماله،[72] وكان يقول: "لا أقاتل في الفتنة وأصلي وراء من غلب"، و "لو اجتمعت علي امة محمد إلا رجلين ما قاتلتهما".[73] كما كان يقبل جوائز الحكام قائلاً: "لا أسأل أحداً شيئاً ولا أردّ ما رزقني الله".[74] وكانت أيضاً عائشة أم المؤمنين تقبل هدايا معاوية، إلا أنها كانت أحياناً تفرقها وأحياناً تحفظها لنفسها وخادمتها.[75] وأما أبو هريرة فكان في أثناء الفتنة يصلي خلف علي ويأكل على سماط معاوية ويعتزل القتال، ويقول إن الصلاة خلف علي أتمّ وسماط معاوية أدسم وترك القتال أسلم.[76] وظلّ معاوية يحترمه لأنه كان ممن ينصر عثمان وكان معه في الدار.[77] وكان أبو هريرة أيضاً يقبل الهدايا والجوائز من ولاة معاوية على المدينة، أو من معاوية نفسه، على أنه غالبً كان يتصدّق بها على الناس. ويُقال عنه إنّ معاوية قد استخلفه مرّةً وقتاً يسيراً على المدينة، فلما غضب عليه عزله وولى مروان بن الحكم،[78] كما يرِد انه استُقضي بالمدينة وقبل، ومارس القضاء مدّةً.[79] وأما سعد بن أبي وقاص، أحد الستة أصحاب الشورى وآخر العشرة وفاةً، فيُذكر عنه أنه أيضاً بايع معاوية وعاهده وكان يفد إليه، وما سأله سعد شيئاً إلا أعطاه إياه.[80] ويُقال عن أبي موسى الأشعر أنه اعتزل الناس والتطورات السياسية بمكة بعد معركة صفين، على أنه في النهاية اعترف بمعاوية وبايعه.[81] وقد تقدم أنّ مروان بن الحكم غالباً ما كان يستشير الصحابة في المدينة

---

70 انظر: ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية: ص104. السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص201.ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص307. ابن قتيبة الدينوري: الإمام والسياسة: ج1 ص183. ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج2 ص66.

71 الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص232. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج3 ص314. ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص34، 153.

72 ابن كثير: البداية والنهاية: ج9 ص6.

73 ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 1957: ج4 149-150.

74 المرجع نفسه: ج4 ص150.

75 ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص139.

76 ابن العماد: ذرات الذهب: ج1 ص64.

77 الذهبي: تاريخ الإسلام: ج4 ص357.

78 ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص117.

79 وكيع: أخبار القضاء، عالم الكتب، بيروت، دون عام الطبع: ج1 ص111.

80 ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص75.

81 الذهبي: تاريخ الإسلام: ج4 ص145.

وهن والٍ عليها., وكذلك يرِد أن زياد بن أبيه لما ولي البصرة ثم بعد ذلك الكوفة، عقب وفاة المغيرة بن شعبة، كان يستعين في ولايته بعدّة من الصحابة منهم أنس بن مالك.[82] وقال الأوزاعي عن كل هذا: "أدركت خلافة معاوية جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم ينتزعوا يداً من طاعة، ولا فارقوا جماعة، وكان زيد بن ثابت يأخذ العطاء من معاوية".[83]

ونشير أيضاً إلى العلماء الذين تعاملوا مع السلطة بصورة أنهم اعترفوا بمشروعية الخلافة المئوية ولم يعدّوا غيرهم أئمة صالحين لقيادة الأمة الإسلامية. وكان هذا الصنف من العلماء يتحول بسرعة إلى موظفين رسميين للدولة، مثلما كان يفعل شريح بن الحارث، قاضي معاوية في الكوفة أولاً ثم في البصرة بعد أن أخذه زياد إلى هناك،[84] وزارة بن أوفى، من كبار علماء البصرة وصلحائها، القاضي على البصر، وعبد الله بن نوفل، القاضي على المدينة، لقد كان عبد الله بن نوفل أوّل من استُقضي بالمدينة، استقضاه واليها مروان ابن الحكم، وقال أبو هريرة : "هذا أول قاض رأيته".[85] كما يرِد أن أهل بين عبد الله بن نوفل قد أنكروا أن يكون ولِي القضاء المدين هو ولا أحد من بني هاشم،[86] وبعد عزْل عبد الله بن نوفل ولِي القضاء في المدينة أبو سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف، الفقيه من متقدمي التابعين. فما انعزل أبو سلمة وُلّي أخوه مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وبجانب القضاء ضمّ إليه معاوية الشُرط أيضاً.[87]

إنّ هؤلاء العلماء وغيرهم ممن كانوا على شاكلتهم وقفوا من الأمويين هذه المواقف لأجل استيفاء أكثر شروط الخلافة فيهم، ثم لأن أطرافاً كثيرة من الأمة الإسلامية بايعت لهم، ولنه يجب الأخ برأي الجماعة وهو أقرب إلى الصواب والحقّ وأبعد عن الضلال الباطل، كما أنه أدعى للسلامة والعافية وأنفى للاختلاف والفرقة. وأخيراً، ارتأوا أن الخروج عليهم غير سائغ إذ إنه لا يمكن أن يؤدي إلا إلى الفتنة وسفك الدماء وتفرقة كلمة المسلمين، وذلك كله محرم

---

82 ابوالفرج ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: ج5 ص213. ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ج3 ص307.

83 منقول من "الأباطيل يجب أن تحمى من التاريخ" للدكتور إبراهيم علي شعوط، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، 1983: ص215. وانظر أيضاً: ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص136.

84 كان عمر بن الخطاب أول من استقضى شريحاً على الكوفة، وأما الأمويون فلم يزل يخدمهم قاضياً حتى توفي عام 78هـ. وجاء أنه استعفى من القضاء قبل موته بسنة، ويّكر أنه كان قاضياً على الكوفة ستين سنة وعلى البصرة سنة. (ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: ج10 ص294. ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط: ص141).

85 إن قول أبي هريرة هذا يدلّ على أنه ولّي القضاء بعد عبد الله بن نوفل.

86 وكيع: أخبار القضاة: ج1 ص113. ابن سعد: الطبقات الكبرى: ج5 ص22.

87 وكيع: أخبار القضاة: ج1 ص116-118.

ومجمع على تحريمه من قبل كلّ الجهات والأحزاب. وكان من الأفضل، بموجب وجهة نظر هؤلاء العلماء، النزول إلى الواقع والإلمام به كما هو من غير زيادة أو إنقاص منه، ثم بعد ذلك مواجهته ومحاولة إصلاحه بوسائل مكافئة فعّالة وأساليب ناجعة تحقيقاً للمصلحتين الشرعية والمجتمعية، من غير إفراط يوقع الناس في الحرج والمضايقة ولا تفريط تضيع به المحافظة على حدود الشرع ومحارمه، بحيث إنه سيمكن بالتدريج إصلاح وتقوية العلاقات بين السلطة والعلماء، والسلطة والعوام، وبين أعضاء الأمة الإسلامية كلها.[88] وهذا شريح القاضي الذي رفض أن يهتم على الإطلاق بالفتن التي أعقبت وفاة معاوية، وكانت فتنة ابن الزبير تسع سنين وهو لا يخبر ولا يستخبر، وقال: "لما كانت الفتنة – أي فتنة ابن الزبير– لم أسأل عنها". وإليه تنسب هذه الكلمات: "في الفتنة ما استخبرت ولا أخبرت ولا ظلمت مسلماً ولا معاهداً ديناراً ولا درهماً".[89] وبسبب مواقفه السياسية هذه عزله ابن الزبير عن القضاء مدّةً عندما استولى على الكوفة،[90] في حين يرد في "عيون الأخبار" لابن قتيبة أن شريحاً قعد ولم يقض في الفتنة فاستقضى ابن الزبير رجلاً آخر مكانه ثلاث سنين فلما قتل ابن الزبير أُعيد على القضاء.[91]

ومما لاريب فيه أن هذه المعاملات مع القيادة العلمية كانت في مصلحة النخبة السياسية، إذ إنها كانت تجاوز تأصيل وتحقّق السلام والاستقرار والنظام. وقد سمح اعتراف القادة العلمية بخلافة معاوية وكذلك الهدوء والاستقرار في الدولة بان يتوجه معاوية إلى تكثيف الجهود ليقوّي شرعية حكمه ثم يُروّج سياساته وسياسات عمالة لدى عامّة الناس، ولاسيما لدى الذين كانوا في أوّل الأمر يتورعون عن الاعتراف به إماماً للمسلمين. ولذا نرى معاوية يجاهد كثيراً ويحضّ الناس على الجهاد وإعلاء كلمة الإسلام وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية لدرجة أنه يُقال عنه إنه كان يغزو الروم في كل سنة مرتين، مرة في الصيف ومرة في الشتاء.[92] كما نراه يتصدى في المراحل المبكرة– أي عام 41 هـ و 42 هـ حين كان حكمه في طور الاستتباب– لإخماد حركات وثورات الخوارج التي استطاعت أن تشغل الحكومة والمسلمين جميعاً عن الجهاز والعمل على نشر الدعوة الإسلامية. ومكنت كلك هذه الملابساتُ المعينةُ معاوية من إرساء قواعد الدولة وتنظيم أمورها الإدارية بحيث سجّل التاريخ أنه أوّل م وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة لأنه كان

---

88 ولأجل هذه الأسباب كان العلماء يتعاملون مع الحكام عبر التاريخ الإسلامي.

89 ابن كثير: البداية والنهاية: ج9 ص24. ابن سعد: الطبقات الكبرى: ج6 ص140-141.

90 ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط: ص168. الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج4 ص103.

91 ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، تحقيق الدكتور محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994: ج1 ص102.

92 ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص129.

مهتمّاً غاية الاهتمام بالرسائل التي كانت تصله من أقطار الدولة، فكانت على هذا الأسلوب تصل انتظام وبلا تأخر، وهو أوّل من وضع ديوان الخاتم، وهذا ديوان معتبر من أكبر الدواوين لم تزل السنة جارية به إلى أواسط الدولة العباسية فأُسقط،[93] وهو أوّل من اتخذ الحرس وذلك اعتباراً بما أصاب جميع الخلفاء السابقين ما عدا أبا بكر، من الاغتيال.

إن القيادة العلمي التي كان الناس ستطلّعون إليها أكثر فأكثر ولاسيما في حقبة التوترات السياسية ليتلقّوا مها إرشادات وتوجيهات في قضايا شتى هذه القيادة إن أبت في حال من الأحوال البيعة والتعامل مع السلطة، فإنما يدل ذلك على أنّ النخبة الدينية والعلمية في الحجاز والمدينة خاصةً لم تعترف بمعاوية كخليفة المسلمين وشرعية حكمه وكلّ ما قام به من المشاريع والبرامج السياسية ليدير الدولة ويضبط أمورها بعد سنوات الاضطرابات، ثم بعد ذلك، فقد علم الناس جيداً أن معاوية تسلم الخلافة زمن الفتنة المفعمة بالحروب الأهلية الدموية التي كان هو نفسه من المشاركين فيها، كما ألموا بأن عدداً كبيراً من أعضاء القيادة العلمية، منهم عبد الله بن عمر وأبو هريرة وأبو موسى الأشعري وسعد بن أبي وقاص وغيرهم،[94] قد تخلفوا عن القتال المشاركة في الفتنة، ولئن تنحى وتخلف هؤلاء عن بيعة معاوية والتسليم بخلافته حين أخذ الأمر أن يستقرّ لديه لكان لك منهم بمثابة الحكم على خلافة معاوية بأنها غير شرعية وليست إلاّ امتداداً للفتنة القديمة وتفريقاً لكلمة المسلمين. وكان كل ذك بالطبع آخر شيء تمنّته القيادة السياسية وهي في خضم تجنيد كل طاقاتها ومواردها للقيام لعملية تسوية الفروق وإزالة سوء التفاهم فيما بين الناس ثم استقطاب وجلب مساندتهم، لأن الأم الإسلامية هي مصدر شرعية الخليفة وهي التي تحدد نطاق صلاحايته وواجباته، وأما الدين فهو سبب وجود الأمة وهو الأساس الذي تقوم عليه الأمة والسلطة.[95]

كما أمكن أن يدلّ تخلف وتنحي القيادة العلمية عن البيعة والتعامل على أنها إما انضمّت إلى صفوف المعارضة النشطة وقتذاك مثل الخوارج أو بعض فئات الشيعة المتطرفة التي لم ترض بتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وإمّا كوّنت بنفسها نماطً جديداً من المعارضة قد اصطبغت بصبغة مخالفة لتلك التي اصطبغت بها معارضة الخوراج

---

93 ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية: ص106-107. السيوطي: الوسائل في مسامرة الأوائل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986: ص88.

94 إمام الحرمين الجويني: غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق الدكتور عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، قطر، 1400هـ: ص113.

95 خير الدين يوجه سوي: تطور الفكر السياسي عند أهل السنة، دار البشير، عمان، 1993: ص104. ولذلك قال الخليفة أبوبكر في خطبته الأولى إثر بيعته معبراً عن سلطة الدين والأمة: "أطيعوني ما أعطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم.. فإذا رأيتموني قد استقمت فاتبعوني، وإن زغت فقوّموني...". (ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص16).

والشيعة والغلاة، ولكن بنفس القدر من الشدة. وفي كلتا الحالتين يكون السلام والاستقرار في الدولة معرّضين للاختلال والتزعزع والانهيار الذي يعقبه الزوال، إذ إنّ الناس أضحوا تبعاً للقيادة العلمية، فلو فعلوا شيئاً فعله الناس جميعاً. وقد كتب سعيد بن العاص، أحد ولاة معاوية في المدينة إبان حكمه، عن هذه الحقيقة حينما رفض أهل المدينة، وفي جبهتهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين ابن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر، أن يبايعوا ابنه يزيد، وقال له عن سبب تقاعس هؤلاء عن البيعة: "...إنما الناس تبع لهؤلاء النفر، فلو بايعوك بايعك الناس جميعاً ولم تخل عنك أحد".[96]

وكثيراً ما كانت القيادة العلمية في أثناء هذه الفترة الحاسمة تقوم بمعزل عن السلطة بنشاطات دينية وعلمية متباينة استفاءً لأمانتها، وكان ذلك ممكناً باعتبار على أن مصادر الإسلام ظلّت مستقلة وفي متناول كلّ واحد. وكانت القيادة العلمية في معظم الحالات تستخدم المسجد لأداء فعالياتها وتسيير سائر شؤونها تجاه الرعية، ولما كان المسجد بيت الله تعالى، كما هو بيت الجماعة وبيت كل واحد منهم على حدة فإنه لم يلبث أن صارت المساجد في جميع زوايا الدولة الإسلامية معاهد للتعليم، وتدارس القرآن الكريم والسنة، ومحلاً للتذاكر، والإفتاء، والدعوة الإسلامية. إنّ هذه الجهود والخدمات المتناثرة في هذا الطور ستبدأ تنتظم في القرن الآتي وتتطور إلى تيارات ومدارس علمية، فقهية كلامية وتفسيرية، على المستويين المحلي والإقليمي. وفي هذا الصدد يرد عن عبد الله بن عمر[97] وعبد الله بن عباس[98] أنهما كانا يُفتيان بالمدينة. وكان عبد الله بن عباس يجلس في الصُفّة في مسجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكان الناس يتصدون عن فتياه، فيقول السقاة: "كأنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا أنه لم يُبعث".[99] كان عبد الله بن عباس أكثر الصحابة على الإطلاق فتوى بحيث كان كبار الصحابة يحيلون عليه في الفتوى،[100] وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب بن أمير المؤمنين المأمون، أحد أئمة الإسلام في العلم والحديث، فتيا ابن عباس في عشرين كتاباً.[101] وقد وصف عطاء بن رباح المجلس العلمي لابن عباس قائلاً: "ما رأيت

---

96 ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص191.

97 الذهبي: تاريخ الإسلام: ج5 ص462.

98 البلاذري: أنساب الأشراف: ج4 ص44، 50.

99 المرجع نفسه: ج4 ص50.

100 الكتاني: التراتيب الإدارية، دار الكتاب العربي، بيروت، دون عام الطبع: ج2 ص413.

101 ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991: ج1 ص10.

مجلساً أكرم من مجلس ابن عباس، لا أعظم ولا أكثر علماً، أصحاب القرآن في ناحية، وأصحاب الفقه في ناحية، وأصحاب الشعر في ناحية، يوردهم في واد رحب".[102] ويُذكر أن طلاب العلم كانوا يزدحمون على ابن عباس وهو في بيته حتى كان يضيق بهم الطريق، فكان يرتّبهم في التقديم على حسب مطالبهم ولم يراع ف ذلك سابقاً. فكان أوّلاً ينادي بالطالبين للقرآن وحروفه وما أرادوا منه، فإذ فرغوا كان يتبعهم الطالبون لتفسير القرآن وتأويله، فإذا فرغوا كان يتبعهم الطالبون للحلال والحرام والفقه، فإذا فرغوا كان يتلوهم الطالبون للفرائض وما أشبهها، فإذا فرغوا كان يتبعهم الطالبون للعربية والشعر والغريب من الكلام. وكان طلبة كل الرتبة يدخلون على ابن عباس حتى يملؤوا البيت والحجرة.[103]

كما كانت لكلّ من أبي هريرة وزيد بن ثابت وعائشة أمّ المؤمنين جلسات علمية بالمدينة،[104] وكلهم كانوا يُفتنون بها بحيث أنه يُقال عنهم إنهم كانوا من المكثرين من الصحابة إفتاء،[105] وقال ابن حزم إنه يمكن أن يجمع من فتيا كل واحد من هؤلاء مجلد أو سفر ضخم،[106] وقد جمع شيخ الإسلام تقي الدين السبكي جزءاً سمي " فتاوى أبي هريرة".[107] أما عائشة فقد كانت كذلك من أكر الصحابة إفتاءً، وقد تلقى منها العلم كثير من الصحابة والتابعين لحدّ أن أبا عثمان الجاحظ عندما تحدث عن طلبة وحملة العلم في عصر الصحابة والتابعين تبنّى مصطلح "أصحاب عائشة" وذكره مقروناً بمصطلح "أصحا، أي تلاميذ وأتباع، عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب".[108] ويرِد عن سعيد بن المسيب، سيد التابعين، أنه كان يُفتي في عهد معاوية، مع أن كثيراً من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه

---

102 البلاذري: أنساب الأشراف: ج4 ص44. ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين: ج1 ص15.

103 أبونعيم الأصفهاني: حلية الأولياء، المكتبة السلفية، دون عام الطبع: ج1 ص320-321.

104 الكتّاني: التراتيب الإدارية: ج2 ص411، 342. الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج4 ص424.ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين: ج1 ص10، 28.

105 المكثرون من الصحابة إفتاءً سبعة: عمر وعلي وابن مسعود (هؤلاء لم يدركوا خلافة معاوية) وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وعائشة. (ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين: ج1 ص10).

106 المرجع نفسه: ج1 ص10.

107 خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، 1986: ج3 ص308.

108 أبو عثمان الجاحظ: كتاب العثمانية، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 1991: ص93. ويرد في هذا الصدد عن ابي موسى الأشعري أنه قال: "ما أشكل علينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً قط فسألنا عائشة غلا وجدنا عندها منه علماً". وقال مسروق: "لقد رأينا الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عائشة عن الفرائض". وقال عروة بن الزبير: "ما رأيت أحداً من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال ولا بحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا بنسب من عائشة". وقال الأحنف: "سمعت خطبة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب فما سمعت الكلام من في مخلوق أحسن ولا أفخم من فيّ عائشة". (أبوالفرج بن الجوزي: صفة الصفوة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الثانية، 1992: ج2 ص16-19).

وسلم كانوا متواجدين.[109] ويُقال عن عبيدة بن عمرة السلماني أحد الفقهاء الكبار بالكوفة، إنه كان احد أصحاب عبد الله بن سعود الذين كانوا يُفتون ويُقرئون، وهو الذي كان يوازي شريحاً في القضاء،[110] وكان شريح إذا أشكل عليه أمر كتب إلى عبيدة فيه، وانتهى إلى قوله.[111] وكان عبيدة يكتب كتباً فدعا بها عند موته فمحاها وقال: "أخشى أن تضعوها على غير موضعها".[112]

وكان شريح يستشير أيضاً مسروقاً،كذلك من تلاميذ ابن مسعود،لأن هذا كان أعلم منه بالفتوى.[113] ومن أصحاب عبد الله بن مسعود غير عبيدة السلماني ومسروق ممن كانوا يقرئون الناس ويعلمونهم السنة: علقمة والأسود، والحارق بن فيث، وعمر بن شُرحْبيل.[114] ويُذكر عن عمر بن شُرحْبيل انه كان إمام مسجد بني وادعة فضلاً عن التعليم والإقراء، وكان إذا أخذ عطائه تصدّق به.[115] أما علقمة، أيضاً من تلاميذ عبد الله بن مسعود،[116] فقد كان من علماء الكوفة ومُقرئيها، وجوّد القرآن على ابن مسعود، وتلا عليه مجموعة من العلماء وتفقّه به أئمة. وتصدى للإمامة والإفتاء، وكان طلبته يسألونه ويتفقهون به والصحابة متوافرون،[117] حتى جاء أن أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلكم كانوا يسألونه ويستفتونه.[118] ويرد كذلك أن زِرّ بن حُبيش، الإمام القدوة ومُقرئ الكوفة، تصدّر للإقراء فقرأ عليه عدد من العلماء والقرّاء المشهورين. [119] أمّا نتائج هذه الجهود القيّمة العظيمة فقد اختصرها ابن قيم الجوزية فيما

---

109 ابن سعد: الطبقات الكبرى: ج5 ص121-122.

110 الذهبي: تاريخ الإسلام: ج5 ص482.

111 ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص333.

112 الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج4 ص43.

113 ابن سعد: الطبقات الكبرى: ج6 ص82.

114 الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج4 ص65.

115 ابن سعد: الطبقات الكبرى: ج6 ص106.

116 ويرد أن بعد الله بن مسعود، الذي توفي عام 32هـ، وعلقمة كانا يصفان الناس صفين عند أبواب كندة فيُقرئ عب الله بن مسعود رجلاً ويقرء علقمة رجلاً. (الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج4 ص55).

117 الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج4 ص45.

118 المرجع نفسه: ج4 ص59.

119 المرجع نفسه، ج ص167.

صرح بأنّ الدين والفقه والعلم انتشر في الأمة عن أصحاب ابن مسعود وأصحاب زيد بن ثابت، وأصحاب عبد الله بن عمر، وأصحاب عبد الله بن عباس، فعلم الناس عامته عن أصحاب هؤلاء الأربعة.[120]

وثمة رواية رائعة حيث تتجلى لنا كثرة وحيوية النشاطات العلمية التي كانت القيادة العلمية تقوم بها في المدينة — وكان ذلك شأن الحياة العلمية في سائر مدن الدولة الإسلامية: يروى عن الزهري، عن قبيصة بن ذؤيب، قال: "كنا في خلافة معاوية، وإلى آخرها نجتمع في حلقة بالمسجد بالليل، أنا، ومصعب وعروة ابنا الزبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن،وعبد الملك بن مروان، وعبد الرحمن المسور، وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وكنا نتفرق بالنهار، فكنت أنا أجالس زيد بن ثابت وهو مترأس بالمدينة في القضاء، والفتوى، والقراءة، والفرائض في عهد عمر وعثمان وعلي. ثم كنت أنا وأبو بكر بن عبد الرحمن نجالس أباب هريرة، وكان عروة يغلبنا بدخوله على عائشة.[121]

وكان ممن أشرنا إليه من القيادة العلمية من كتب علمه في الصحف والكتب مثل عبيدة السلماني الذي قد سبق ذكره كتبه التي دعا بها عند موته فمحاها. وكذلك يرِد أن عبد الله ن عباس كان سكت الفتاوى التي يسأل عنها،[122] وروى مسلم في صحيحه أنه ألّف كتاباً في قضاء علي بن أبي طالب،[123] وذلك بعد أن طُلب ذلك منه. وكتب جابر بن عبد الله صحيفة، وكان الناس يرون مجاهداً يحدث عنها،[124] كما تُذكر صحيفة ألّفها أبو هريرة، وأخرى ألّفها أبو موسى الأشعري،[125] وكتاب في الفرائض يُنسب إلى زيد بن ثابت.[126]

ولكن، إنّ كلّ ما سبق ذكره لا يعني أن القيادة العلمية كانت تصمت وتُقرّ بكلّ ما كانت تقوم به القيادة السياسية على الجبهات السياسية والاجتماعية والدينية، ولاسيما إذا كان شيء منها مناقضاً لروح وتعاليم الإسلام وسير الخلفاء الراشدين. وعندئذ لم تتردد القيادة العلمية في النصح والنقد بل ومعارضة ومقاومة القيادة السياسية.

---

120 ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين: ج1 ص17.

121 الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج4 ص424.

122 الكتاني: التراتيب الإدارية: ج2 ص253.

123 مسلم: صحيح مسلم: انظر مقدمة الكتاب.

124 ابن سعد: الطبقات الكبرى: ج5 ص467.

125 الدكتور صالح أحمد العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983: ص82.

126 الكتاني: التراتيب الإدارية: ج2 ص256.

وعلى سبيل المثال يُروى في هذا السياق أن عبد الله بن عر رحل إلى معاوية يوماً فقال له: "يا أبا عبد الله! كيف ترى بنياننا"؟ أجاب عمر: "إن كان من مال الله فأنت من الخائنين، وإن كان من مالك فأنت من المسرفين".[127] وكان ابن عمر إذا سُئل عن الفتيا قال: "اذهب إلى ها الأمير الذي تقلد أمور الناس فضعها في عنقه".[128] وكثرت نصائح عبد الله بن عباس لمعاوية وحواراته معه لحدّ أن معاوية قال: "ما باحثُّ (أو خاصمت) أحداً في عقله أشدّ عليّ من ابن عباس".[129] وكان الحسن قد عهد إلى أخيه الحسين أن يدفن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن خاف أن يكون في ذلك قتال أو شرف ليدفن بالبقيع. فأبى مروان بن الحكم، العامل على المدينة، أن يدفن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.[130] فلما خاف الناس وقوع الفتنة أشار سعد بن أبي وقاص وأبو هريرة وجابر وابن عمر على الحسين أن لا يناهض ويقاتل فامتثل ودفن أخاه قريباً منة قبر أمّه بالبقيع. فلما وصل الخلاف بين الطرفين أشده قال أبو هريرة لمروان: "والله ما أنت بوال، وإن الوالي لغيرك فدعه، ولكنك تدخل فيما لا يعنيك، إنما تريد بهذا إرضاء من هو غائب عنك–يعني معاوية".[131] وقال أيضاً: "قاتل الله مروان، قال: والله ما كنت لأدع ابن أبي تراب يُدفن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد دُفن عثمان بالبقيع".[132] وقام يوماً أبو هريرة إلى مروان قد أبطأ بالجمعة فقال له: " أتظلّ عند ابنة فلان تروّحك المراوح وتسقيك الماء البارد، وأبناء المهاجرين والأنصار يُصْهرون من الحرّ؟ لقد هممت أن أفعل وأفعل"، ثم قال: "اسمعوا من أميركم".[133] وقد سلك هذا المسلك الآخرون من القيادة العلمية من الصحابة والتابعين الفضلاء مثل عائشة أمّ المؤمنين،[134] وسعد بن أبي وقاص،[135] وجابر بن عبد الله،[136] وأبو سعيد الخدري،[137] وسعيد بن المسيب،[138] والمِسْور بن مخرمة الزهري[139] وسُويد بن غفلة[140] وغيرهم.

---

127 اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي: ج2 ص232-234ز

128 الغزالي: إحياء علوم الدين، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1980: ج11 ص118.

129 البلاذري: أنساب الاشراف: ج4 ص67.

130 السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص194.

131 ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص46، 111.

132 الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج3 ص275.

133 ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد: ج1 ص56.

134 أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني: ج17 ص357. الكبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص257. ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص55. أبوحامد الغزالي: التبر المسبوك في نصيحة الملوك، المؤسسة الجامعية، بيروت، 1987: ص140. المالقي: الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق الدكتور علي سامي النشار، دار الثقافة، المغرب، 1984: ص76. وقال معاوية يوماً للحسن بن علي: "عجباً لعائشة تزعم أني في غير ما أنا أهله وأن الذي اصبحت فيه ليس لي بحق". (البلاذري: أنساب الأشراف: ج5 ص110).

وقد وقفت القيادة العلمية هذه المواقف لأنها كانت تشعر بثقل المسؤولية التي عليها ذلك بأنها وريثة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم في بيان الدين الموحى إليه ثم تطبيق تعاليمه في ضوء سنته على جميع مستويات الحياة، ولذا لم تتوقف القيادة العلمية عن ممارسة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ممارسة شاملةً حتى إن كان فاعل المنكر أو تارك المعروف النخبة السياسية التي يترأسها الخليفة. وها في الحقيقة أمر متوقّع لا يستلزم العجب إذ أنّ كثيراً من القيادة العلمية كانوا من الصحابة الكرام الذين صاحبوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وشاهدوا نزول الوحي وشاركوا في بناء المجتمع الإسلامي النموذجي في المدينة، والميراث والإيماني والعلمي الذي يحملونه لم يسمح لهم بشيء من الغفلة أو الركون.[141] على أن التغافل عن ممارسة "المر بالمعروف والنهي عن المنكر" ممارسة شاملةً والتملق للحكام لدى عدد من العلماء كحصيلة للفصام بين القيادتين السياسية والعلمية، سيحدث في العهود اللاحقة، وأما العصر الذي نحن بصدده في هذه الدراسة فإنه وُضعت فيه بعض بذور تلك الظاهرة، لا أكثر من ذلك، وهي تفتقر إلى وقت معين لتنمو وتنضج ثم تثمر شيئاً من الثمرات تلبيةً لملابسات مناسبة.

كل هذا من جانب، ومن جانب آخر كان عدد كبير من أعضاء القيادة السياسية أيضاً من صفوف كبار الصحابة وأبنائهم بحيث تيسّر في حالات كثيرة لكل من الطرفين التفاهم والتعاون وتجنب أو تجاوز الخلافات والشقاق، مثلما حدث حين عزم معاوية على تحويل المنبر النبوي من المدينة إلى دمشق، وأن يأخذ العصا التي كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يمسكها في يده إذا خطب فيقف على المنبر وهو ممسكها، حتى عارضه أبو هريرة وجابر بن عبد الله فقالا له: "يا أمير المؤمنين نذكرك الله أن تفعل هذا فإنه لا يصلح أن يُخرج المنبر من موضع وضعه فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وتُخرج عصاه من المدينة". فترك ذك معاوية ولكن زاد في المنبر ست درجات، واعتذر إلى الناي

---

135 اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي: ج2 ص237. المسعودي: مروج الذهب: ج3 ص23-24.

136 الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص239.

137 اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي: ج2 ص217.

138 المرجع نفسه: ج2 ص232.

139 الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج3 ص151، 391.

140 هو الإمام القدوة، امتنع عن تولي شيئاً وقبول الهدايا من السلطان. وكان إذا قيل له: "أُعطي فلان ووُلّي فلان"، قال: طحسبي كِسْرتي وملْحي". (الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج4 ص72).

141 وفي هذا الصدد يُقال عن الصحابة والتابعين إنّ عملهم كان في خمسة أشياء: قراءة القرآن، وعمارة المساجد، وذكر الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. (الغزالي: إحياء علوم الدين: ج1 ص119).

مما صنع.[142] كما أنّ كون كثير من أعضاء القيادة السياسة من صفوف الصحابة الكرام وأبنائهم كان يحد ويقلع جذور الانحراف والانتكاس داخل إطار تصرّفات بعض عمال الدولة فيما يخصّ كيفية أداء شؤون الدين والسياسة.وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى الحكم بن عمرو الغفاري الصحابي الجليل الذي استنابه زياد بن أبيه على غزو جبل الأشل في خراسان فانتصر وأصاب مع جيشه غنائم كثيرة، فجاء إليه كتاب زياد على لسان معاوية أن يصطفي من الغنيمة لمعاوية ما فيها من الذهب والفضة، فردّ عليه: "إن كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، أو لم يسمع لقوله عليه السلام: "لاطاعة لمخلوق في معصية الله؟ "وقسم في الناس غنائمهم ومن المرخين من يرى انه حبس إلى أن مات بمرور عام 50هـ.[143] وقد لخّص ابن الطقطقا تلخيصاً وافياً مواقف القيادة العمية هذه من معاوية خاصةً والقيادة السياسية عامّة إذ قال: "ولا يزال أشراف قريش مثل عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر الطيّار وعبد الله بنم عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وأبان بن عثمان بن عفان وناس من آل أبي طالب، رضي الله عنهم، يفدون عليه– يعني معاوية – بدمشق فيكرم مثواهم ويحسن قراهم ويقضي حوائجهم، ولا يزالون يحدّثونه أغلط الحديث ويجْبهونه أقبح الجبْه، وهو يداعبهم تارة ويتغافل عنهم أخرى ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنيّة والصّلات الجمّة".[144]

تفاقم العلاقات بين القيادتين السياسية والعلمية:

إن مبادرة معاوية ليبايع ابنه يزيد بولاية العهد قد وتّرت العلاقات بين القيادتين السياسية والعلمية، والفجوة بين الجانبين منذ تلك اللحظة بدأت تتسع أكثر فأكثر، بحيث صار مستبعداً تضيقها وسدّها مالم يتراجع معاوية عن خاطرة المفاجئ ها ويعهد الأمر إلى المسلمين ليتشاورا ثم تواطؤوا على خيار شرعي مقبول. وعليه، جُل جهود معاوية الدؤوبة نحو إيجاد التسوية والسلام والاستقرار في الدولة ثم مثابرته على استقطاب وجذب تعاون القيادة العلمية بمدى أوسع مما كانت في بادئ الأمر ومساندتهم المطلقة لحكمه وسياسته، كلّ هذا صار على شفا جرف هار. إن تبرير معاوية لهذه المبادرة كان علمه بما لقيت الأمة الإسلامية آنفاً من الفتنة والاختلاف، وفي عنقه الموت، فتهيب إن حدث به حدث أن يقع الناس في مثل ما وقعوا فيه بعد اغتيال الخليفة عثمان.[145] بيد أن القيادة العلمية لم تطمئن

---

142 الكبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص239. ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص46.

143 انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى: ج7 ص28–29. الذهبي: تاريخ الإسلام: ج4 ص41–42. ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص48–49. خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، 1986: ج2 ص267.

144 ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية: ص104.

145 ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص173.

إلى مسوِّغات وذرائع معاوية ليسنّ هذا الأسلوب الجديد لتعين الخيفة فيضيفه إلى قائم التجارب والخبرات المقبولة للحياة السياسية الإلامية، إذ ذلك كان لا محالة مضاداً لتصرفات الذين سلفوه وكانوا خيراً منه، كما كان تصورفه هذا يعني بداية خلع الصبغة الإسلامية الأصيلة عن مؤسسة الخلافة وصبغها التدريجي بالصبغة الهِرقلية والقيصرية والكِسروية[146] حيث يتوارث السلطان الأبناء عن الآباء،وإنما تكون الخلافة في قريش لمن يكون لها كفؤاً ممن ينتخبه المسلمون لأنفسهم ومن تتوافر فيه بقية الشروط المستمدّة من حياة وسير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والخلفاء الأربعة الذين تتابعوا من بعده.

ولكن، ما ألمّ به كثير من الناس وفي مقدمتهم القيادة العلمية هو أن يزيد لم يكن أمثر الناس استعداداً وكفاءة لاحتلال عرش الخلافة، حتى إذا صحّت مبدئياً مبادرة معاوية ليبايع له بولاية العهد. وقد أشار إلى ذلك عبد الله بن عباس أوّل ما التقى بمعاوية وعلم بعزيمته على البيعة،[147] وكذلك صرّح بذلك عد الله بن عمر في أثناء اللقاء نفسه قائلاً:"..إن هذه الخلافة ليست بهرقلية، ولا قيصرية، ولا كِسروية، يتوارثها الأبناء عن الآباء.. ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي، فو الله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى إلا عل أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً. وإنما هي في قريش خاصة لم كان لها أهلاً ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم، من كان أتقى وأرضى...". [148] وقد أنكر من قبل الأحنف بن قيس، الفقيه ن كبار التابعين في العراق، على معاوية همّه بالبيعة ليزيد قائلاً: "..واعلم أنه لاحجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن[149] والحسين، وأنت تعلم من هما، وإلى ماهما،وإنما علينا أن نقول: (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير).[150]

لقد كتب معاوية إلى زياد، وهو واليه على البصرة، يحيطه علماً أن المغيرة ابن شعبة قد دعا أهل الكوفة إلى البيعة ليزيد فأمر له أن يُقبل على نفس الشيء من أهل البرة. فلما بلغ زياداً كتاب معاوية دعا برجل من أصحابه

---

146 ابوالفرج الأصفهاني: الأغاني: ج17 ص357. السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص196.

147 ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص181.

148 المرجع نفسه: ج1 ص182.

149 لقد ذكر الأحنف بن قيس هذا الكلام لمعاوية حينما أُحيط علماً أن معاوية يهمّ بالبيعة ليزيد بولاية العهد والحسن وقتئذ لم يزل حيّاً. وقد أعرض معاوية عن ذكر البيعة حتى وفاة الحسن.

150 ابن تقيبة الدينوري: الإمامة والسياسة ج1 ص180. المسعودي: مروج الذهب: ج3 ص37. ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص83.

يشق بفضه وفهمه فطلب منه أن يذهب إلى معاوية ليخبره أنه يرتئي أنّ تمويه أحقيّة يزيد للخلافة للناس أمر متعذّر جدّاً لما له من السمة الدينية الواهنة والمكانة العلمية الطفيفة، إزاء النخبة الدينية والعلمية المقاومة من الصحابة الأعلام ورهطهم في الحجاز وما لديها من السمعة الدينية الموقّرة والمكانة العلمية العالية والمحترمة. وعليه، فقد ظنّ زياد أنه من باب أولى أن يُؤجّل الأمر إلى ساعة محدّدة حتى يتغير سلوك يزيد وتتهيّأ الأوضاع والظروف بما سيتأتى للخليفة إعلان ذلك القرار. وكانت رسالة زياد: "يا أمير المؤمنين إن كتابك ورد عليّ بكذا، فما يقول الناس إذا دعوناهم إلى بيعة يزيد وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبّغ، ويُدمن الشراب، ويمشي على الدفوف، وبحضرتهم الحسين بن علي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، ولكن تأمره ويتخلق بأخلاق هؤلاء حولاً وحولين، فعسينا أن نموّه على الناس".[151]

إذا تدبرنا من كلّ منظور ردود فعل القيادة العلمية على ما رامت القيادة السياسية أن تفرض عليها من بيعة يزيد بولاية العهد، ونحاول أن نكتشف دواعيها الرئيسية في ضوء التطورات السياسية والدينية والعلمية في الدول الإسلامية، فإننا نتمكّن من استنتاج مايلي:

أوّلاً: إنّ القيادة العلمية رضيت بحكم معاوية باعتباره الحكم المؤقّت في دوامه ونفوذه الذي انتقل إليه تلبيةً للظروف التي أحدثتها الفتنة والحروب الأهلية فإن بيعته لابنه يزيد بولاية الحكم كان يتمثّل انتصار وتوطّد واستحكام سياساته وطرائق حكمه، كما كان يقلل إن لم يكن يقضي على أمل استقامة الأمور وإعادتها إلى مسارها كما كانت قبل نشوب الفتنة والحروب، ولاسيما لدى من ناهضوا معاوية من النخبة الدينية والعلمية باسم الشورى العمّة والتأسي بالخلفاء الأوائل.

ثانياً: لقد وعت القيادة العلمية أن بيعة معاوية لابنه بولاية الحكم دون أن يأخذ بنظر الاعتبار آراء المسلمين ولاسيما قيادتهم العلمية ستسهم في المستقبل في إماتة مفهوم الشوري والانتخاب، ذلك المفهوم الذي يضمن الحيوية والتقدم للأمة الإسلامية في جميع ساحات وأطر الحياة في كلّ مكان وزمان، وستسهم في المقابل في سنّ سنن غير إسلامية أشبه بسنن الأقوام الضالّة الأخرى الإسلامية التي جاء الإسلام في حقيقة الأمر لأجل استئصالها وإرساء القواعد الربانية الفطرية الصحيحة مقامها,. على أنه يُلاحظ أن فترة الخلفاء الراشدين تبنّت مفهوم الشورى والاختيار

151 اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي: ج2 ص220. ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص82-83. الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص302-303.

كطريق للوصول إلى الحكم، لكن دون أسلوب معين ودون أن يستقرّ على نمط معين، ولم تكن تلك الأنماط دائماً موضع الإجماع بدليل أن واحداً منها لم يتكرر، من حيث تطرّق معاوية إلى تسويغ نيّته مُدعياً أن الخلفاء الراشدين صنعوا ما رأوه مصلحة وخيراً للمسلمين في وقتهم آخذن بعين الاعتبار الظروف السائدة في الدولة، وعليه، فهو سيبايع ليزيد لما وقع الناس فيه من التنازع والتباغض والاختلاف، ونظراً لهم بعين الإنصاف.وهناك اعتبار آخر لاحظه معاوية –بحكم التطور الزمني– هو أن دمشق صارت الحاضرة الكبرى ومركز القوة في الدولة الإسلامية، فمن حقّها أن تحلّ محلّ المدينة في اختيار الخليفة كما كانت المدينة أيام عزّها ومجدها السابق.[152] ولكن، لم تكن القيادة العلمية تطمئن إلى تصرف معاوية، حيث إنه بلاء مراء تقليل من نطاق مفهوم الشورى والاختبار الحرّ ثم بعد ذلك إهانة لبعض جوانب مفهوم البيعة الشاملة الدّالة على رضى الجماعة اللازمة لسلامة الخلافة، مما يحتمل أن يؤثّر تأثيراً سلبياً على مستقبل مؤسسة الخلافة، وعلى مستقبل التطور الحضاري للأمة الإسلامية.[153] فاقترح لمعاوية أن يدع الناس على ماتركهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، أي على كتاب الله، فيختارون لنفسهم من يحبونه، أو أن يستخلف من قريش خيرهم كما استخلف الخليفة أبو بكر عمر بن الخطاب، وهو أقصى قريش منه نسبياً، في حين إنه ترك ولده ورهطه الأدنيين ممن كان للخلافة أهلاً، أو أن يصنع كما صنع الخليفة عمر حين اختار ستة أشخاص من المهاجرين القرشيين البارزين فعهد بمهمة تعيين الخليفة إليهم، في حين أنه ترك ولده وأهل بيته وفيهم من لو ولي الخلافة لكان لها أهلاً.[154] وقال عبد الله بن عمر لمعاوية وهو يجادله في بيعة يزيد: "لقد كان قلبك الخلفاء، وكان لهم بنون، ليس ابنك بخير من أبنائهم، فلم يروا في أبنائهم ما رأيت في ابنك، فلم يحابوا في هذا الأمر أحداً، ولكن اختاروا لهذه الأمة حيث علموهم...".[155]

بد أن معاوية لم يتنازل عن دعوة الناس إلى البيعة ليزيد على الرغم من إصرار القيادة العلمية على الامتناع عنها، وإنما تحمس وتشدد في دعوته هذه مستخدماً وسائل الترغيب والترهيب وصور الدهاء المختلفة، ومما يرِد في ذلك أن

---

152 الدكتور إبراهيم علي شعوط: أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ: ص233.

153 وقد شهد العصر الأموي عدداً من الحركات المعارضة المطالبة بالشورى مثل حركة عبد الله بن الزبير عام 63هـ، وحركة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث عام 81هـ التي شارك فيها كثير من العلماء.

154 انظر: ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد: ج5 ص120-121. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص199. الكوفي: كتاب الفتوح: ج4 ص246-247. ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط: ص133.

155 ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص197. ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط: ص131.

سعد بن العاص، والي المدينة بعد عزل مروان بن الحكم الأوّل عنها، دعا أهل المدين ولاسيما بني هاشم إلى البيعة بالغلظة والعنف والعزم والشدة، وذلك استجابةً لطلب معاوية من سوريا. فلما قدم معاوية شخصياً المدينة فيلا موسم الحج أعطى الناس أعطياتهم وأجزل العطاء، وأخرج إلى كل قبيلة جوائزها وأعطياتها ولم يخرج لبني هاشم جائزة ولا عطاء. فلما سأله عبد الله بن عباس عن ذلك أجاب: "والله لا أعطيكم درهماً حتى يبايع صاحبكم (أي الحسين)".[156] كما يرد أن معاوية كان يحر عبد الله بن عمر أن يشقّ عصا المسلمين ويسعى في تفريق ملئهم ويسفك دماءهم لن أمر ابنه يزيد قضاء من القضاء، ولذا فليس للعباد خيرة من أمرهم.[157]

فلما مرض معاوية مرضته التي توفي فيها دعا ابنه فأوصاه بوصية يجاهر فيها بأنه وطأ له الأشياء وأذلّ الأعزاء وأخضع أعناق العرب، ومع ذلك حذّره:"وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: الحسن بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير".[158] ويرد في رواية أخرى أنه لا يتخوف أن ينازعها لأمر الذي أسسه إلا من ذكرهم من قريش. ثم وصف معاوية كلّ واحد من هؤلاء ليزيد، ثم بعد ذلك دله على الطرق المناسبة والفعّالة للتعامل معهم، وهي بجلاء تلك الطرق التي تبناها هو نفسه عند تعامله مع معارضة أهل المدينة، فقال له:"أما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمساً شيئاً قبلك. وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وإن له رحِماً ماسّة، وحقاً عظيماً، وقرابة من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه(ظفرت به) فاصفح عنه فإني لو أني صاحبه عفوت عنه. وأما ابن الزبير فإنه خبّ ضبّ،[159] فإذا شخص لك فالبدْ له (فانبذ إليه) إلا أن يلتمس منك صُلحاً، وإن فعل فاقبل. واحقن دماء قومك ما

---

156 الكوفي: كتاب الفتوح: ج4 ص245. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص200.

157 ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص197.

158 ثمة روايات حيث يُذكر عبد الرحمن بن أبي بكر مع هؤلاء الثلاثة، وذلك خطأ لأن معاوية لم يُوص ابنه يزيد هذه الوصية إلا في سنة 60هـ وعبد الرحمن بن أبي بكر توفي سنة 58هـ. (انظر وقارن بين الروايات الواردة في كلّ من: ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية: ص112. ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص118. الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص322. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج3 ص368. أبوالفرج ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: ج5 ص320).

159 اي الخدّاع.

استطعت".[160] وقد علّق ابن الطقطقا على هذه الوصية بهذه الكلمات:"وفي هذه الوصية دليل على ما سبق من وفور رغبته (معاوية) في تدبير الملك وشدة كلفه بالرياسة".[161]

وهكذا استطاعت طبيعة تطورات الأحداث المتعلقة بإخراج البيعة ليزيد أن تزيد من يقين واقتناع القيادة العلمية بأن الشورى فعلاً ستتعرض للجرح والانتكاس إذا تحقق الأسلوب المراد سنّه وفرضه لتعيين الخليفة، إذ إنّ بعض جوانب الشورى أخذت تغيب وتختفي شيئاً فشيئاً حتى في ظلال حكم معاوية رغم قبول الناس لمعاوية وبيعة المسلمين له، وكان يُعدُّ لدى الجميع أفضل وأليق بقيادته من ابنه يزيد. فبجانب الحقيقة أن معاوية لم يكن دائماً يستشير القيادة العلمية في المدينة فقد كانت له شورى خاصة محصورة في بطانته ووزرائه وأهل بيته ورؤساء أهل الشام وبعض من والاه رضي به وطرائق حكمه من البلاد الأخرى مثل مصر والكوفة والبصرة وحتى مكة والمدينة.[162]

فعقْد العهد ليزيد لم يعد أن كان، كما أسلفنا، انتصاراً واستحكاماً لسلطان معاوية، وأما المعارضة بما فيها القيادة العلمية في المدينة فلم يعد أن كان تعيين يزيد هزيمةً فلم يكن بدّ عندئذ من استبعاد تحقيق آمالها وتوقعاتها إلى أمد. ومما ترتب على كل هذا أنه ما إن توفي معاوية وثار عبد الله بن الزبير على ابنه يزيد حتى انضم إلى ابن الزبير عدد كبير من العلماء من مختلف أقطار الدولة الإسلامية.[163]

ثالثاً: لقد عرفت كلّ من القيادتين السياسية والعلمية أن المبدأ الأعلى في الطاعة هو القرآن والسنة النبوية، أي كلمات الله تعالى المنزلة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وتطبيق النبي إياها على واقع الحياة الفردية والجماعية، وليس الخليفة أو مؤسسة الخلافة في حدّ ذاتها. فالخليفة لا يصحّ أن يطاع إن خرج على القرآن والسنة النبوية ودعا الرعية إلى تعقبه، سواءاً أكان ذلك علانيةً أم صمتاً عن طريق التعاطي الذاتي للأعمال المذمومة. فبدلاً من الانصياع

---

160 الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص323. ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص119.

161 ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية: ص112.

162 انظر عن مستشاري معاوية وبعض استشاراته إياهم في: المسعودي: مروج الذهب: ج3 ص36-38. الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص302. الكوفي: كتاب الفتوح: ج2 ص415، ج4 ص224-249. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص173-191. ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد: ج5 ص118. ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص23، 74، 82-83، 98. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي: ج2 ص220، 238. أبوحنيفة الدينوري: الأخبار الطوال: ص222-224.

163 ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط: ص150-155.

الأعمى في تلك الحالات فإن الرعية المرشدة بقيادتها العلمية يلزم أن تتصدى لتقويم ذلك الأمر المعْوجّ وإعادته إلى التناغم مع المبادئ العليا؛ القرآن والسنة.

وعليه، فإن معاوية الذي وضع فيه قدر يسير من بذور الفصام بين القيادتين السياسية والعلمية وضع فيه كذلك نفس القدر من بذور النضال بين الجانبين حول الأحقية والمشروعية في تأويل القرآن والسنة ثم تطبيقها على كلّ زوايا الواقع الإسلامي. وقد تجلت بوادر هذا النضال في مثابرة وجهود معاوية الدءوبة نحو إحراز الشرعية لحكمه واعتراف الأمة له بذلك، بحيث إنه طور نظريات دارت كلها حول محور واحد ألا وهو استحقاق الأمويين للخلافة لقرابتهم من الخليفة المقتول عثمان، ومؤداها أن معاوية خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ثم إنه خليفة وولي ووارث أمير المؤمنين عثمان لأن الله تعالى قال في الكتاب: ﴿ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾،[164] ومن المتفق عليه فيما بين المسلمين أن عثمان قتل مظلوماً،[165] وممن شارك في تخطيط قتل عثمان كان، بموجب ظن معاوية، بعض أنصار علي بن أبي طالب. ويرد أن عبد الله بن عباس اعترض على معاوية ونظريته هذه اعتراضاً شديداً حين عرضها على أهل المدينة عام 44هـ.[166]

على أن معاوية أدرك أن ما أشاعه من أحقبة الأمويين في وراثة الخلافة من عثمان لأجل حقهم في الطلب بدمه لا يمكن أن يدوم نظريةً مقنعةً في الخلافة في وجه نظريات الأحزاب المعارضة كمثل الشورى المقيدة الحرة عند القيادة العلمية ومن رأى رأيهم من الجماعة، لأنهم حصروا الخلافة في قريش، ونظرية الشورى المطلقة عند الخوارج، لأنهم أسقطوا شرط النسب والقرشية وجعلوا الخلافة لأكفاء الأمة الإسلامية عامةً، ونظرية وراثة الخلافة عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عند الشيعة. ولذا فإن معاوية أحسّ بضرورة بدء تفخيم شخصية الخليفة،وإحاطة منصبه بشيء من القداسة، ورفع الأمر إلى حد معين–إلى إرادة الله تعالى بحيث لا تتاح للناس فرصة ولا مجال لمحاسبة الخليفة وآله كما كان دأبهم مع بعض الخلفاء الراشدين مما اشتعلت الفتن وسفكت دماء المسلمين. وقد قال معاوية أول ما أفضى الحكم إليه لسكان الكوفة:"ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون".[167] كما قال لعبد

---

164 الآية 33 من سورة الإسراء.

165 انظر: ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص131. الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص6-7.

166 اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي: ج2 ص223.

167 ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص134.

الله بن عمر وعائشة أمّ المؤمنين بعد أن رفضا دعوته إلى بيعة يزيد أن"أمر يزيد قضاء من القضاء، وليس للعباد الخيرة من أمرهم".[168] وقال لسعيد بن عثمان بن عفان حين أخبره أنه يتمنى أن يبايع له بولاية العهد مكان يزيد إذ هو خير منه أباً وأماً ونفساً:"وأما أنا أكون نلت ما أنا فيه بأبيك، فإنما هو الملك يؤتيه الله من يشاء"،[169] وقال أيضاً ذات يوم لبعض أهل الشام:"والله إنه لملك آتانا الله إياه"،[170] وفي خطبة زياد بن أبيه لأهل البصرة إن الله تعالى اختار الأمويين للخلافة وإنهم يحكمون بسلطانه ويتصرفون بتوفيقه:"أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسةً، وعنكم ذادةً، نسوسكم بسلطان الله، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما وُلينا..."،[171] فلما همّ معاوية أول ما همّ بالبيعة ليزيد صادف معارضة الأحنف بن قيس، الفقيه العراقي البارز، الذي نبه معاوية إلى أن أهل الحجاز وأهل العراق لن يرضوا بيزيد ومن ثم فإنه لن يبايعوه بحكم انتمائهم السياسي العلوي، فغضب الضحاك بن قيس الفهري الذي كان على شرطة معاوية وكان، كما ذكر اليعقوبي ممن غلب عليه،[172] فقام ثم قال بعد أن وصف أهل العراق بأنهم أهل النفاق والشقاق:"ما للحسن وذوي الحسن في سلطان الله الذي استخلف به معاوية في أرضه..."؟ [173] والضحاك بن قيس الفهري هو الذي ألقى خطبة بعد وفاة معاوية ومعه أكفانه، وقال فيها :" أيها الناس، إن معاوية ابن سفيان كان عبداً من عباد الله، ملكّه على عباده، فعاش بقدر ومات بأجل...".[174]

بيد أن بعض الحكام الأمويين ممن توالوا على الخلافة من بعد معاوية وسعوا تحت وطأة نشاط وديناميكية المعارضة دائرة استخدام هذه الخواطر والمفاهيم الحساسة، كما أضافوا لها وزناً جديداً لحدّ أن النظرية الأموية في الخلافة أصبحت في وجهة نظر كثير من الناس، مشابهة من بعض النواحي لما ذهبت إليه الفرقة الكلامية الجبرية من الاعتقادات الباطلة. ومن أكثر الحكام الأمويين استعانةً بفكرة تقديس وتعظيم منصب وشخصية الخليفة ثم فكرة الجبر

---

168 ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص192، 197.

169 قارن بين الروايات الواردة في: المرجع نفسه: ج1 ص201. ابن كثير: البداية والنهاية: ج8 ص82. أبوالفرج الأصفهاني: الأغاني: ج18 ص261-262.

170 الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج5 ص334.

171 المرجع نفسه: ج5 ص220.

172 اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي: ج2 ص238.

173 ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص178.

174 أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال: الأخبار الطوال: ص226.

في الحكم يزيد بن معاوية[175] والحجاج بن يوسف الثقفي[176] ويزيد بن عيد الملك[177] والوليد بن يزيد.[178]

وهكذا نتمكن من هذا السياق من ردّ شبهة المعتزلة أن معاوية في حقيقة الأمر هو الذي أحدث" رأي المجبرة" فأتبعه في ذلك سائر الخلفاء الأمويين.

وذلك لما استولى على الخلافة احتاج جداً إلى حجج وبراهين مُفحمة مدحضة لمن لم يأتمر بأمره من أعدائه، فأوهم أن المنكر له ولسلطانه قد أنكر غرادة الله تعالى واختياره. وكان يضيف كلّ أفعاله إلى الله تعالى وإرادته يستدعي بذلك إلى تقوية باطله. ومن تصريحات معاوية التي كثيراً ما نطلع عليها في بعض مؤلفات المعتزلة، وحاشا لمعاوية منها :"لو لم يرني كثيراً ربي أهلاً لهذا الأمر ما تركني إياه. ولو كره الله تعالى ما نحن فيه لغيره". أنا خازن من خزان الله تعالى، أعطي من أعطاه الله تعالى، وأمنع من منعه الله تعالى، ولو كره الله أمراً لغيره". كما كان يزعم أن كلّ ما يزاوله من صنع الله تعالى.[179]

فلما عزم معاوية على بيعة يزيد بولاية العهد تبين أن الصراع بين القيادتين السياسية والعلمية حول المشروعية — إن تم الفصام بينهما —سيكون لا مناص منه، إذ إن طبيعة الخلاف بين الجانبين حول البيعة قد أدتّ إلى الجدل على نحوٍ لم يعرف قبل ذلك، حول تحديد شروط الخليفة، وصفاته، وصلاحياته، وحقوقه، وواجباته إزاء الرعية، وواجبات الرعية بالمقابل إزاء الخليفة، بحيث إن كل جانب تشبثّ برأيه وأصرّ كلّ الإصرار على فرضه على الجانب الآخر. بيد أن هذا كان مجرد بداية لأن تدهور العلاقات بين القيادتين السياسية والعلمية في العصور التالية بفعل التغيرات السياسية والاجتماعية الديناميكية التي شهدتها الدولة الإسلامية قد أوجد مشاكل متنوعة الصور والأبعاد، وبها طُرحت للعقل المسلم معاضل جديدة أو قديمة، لكن بصبغة غير مسبوقة، كمثل عزل الخليفة والخروج عن الطاعة، وطاعة الخليفة المتغلب، ووجود خليفتين في وقت واحد وصحة التعامل مع الحكام وقبول هداياهم، وإمامة المفضول مع وجود من هو أفضل منه وهلم جرًّا، مما نتج عنه ظهور نظريات دينية وسياسية متباينة على أيدي الفئات السياسية والدينية المختلفة النزعات، بما فيها النخب السياسية والعلمية. واستنفدت كل فئة كثيراً مواردها وطاقاتها وجهودها في

---

175 ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ج1 ص214.

176 ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد: ج5 ص285.

177 المسعودي: مروج الذهب: ج3 ص212.

178 الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج7 ص219-221.

179 انظر: البلخي: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الثانية، 1986: ص143-144.

تقوية مواقفها وإثبات صحة تصوراتها واتجاهها، كما حاولت بوسائل مختلفة أن تهين وتهدم مواقف وتصورات ونظريات كلّ من لم ير برأيها من بقية الفئات. على أنه مما يسترعي الانتباه أن عدم إعادة الخلافة إلى مسارها النموذجية الأولى، كما كانت زمن الخلفاء الراشدين، خلق فجوة بين ما كان العلماء يذهبون إليه من الفكر وبين الواقع السياسي، بحيث شعر جلّهم بضرورة تجاوزها وتغطيتها فبدؤوا تدريجياً التنازل علمياً عن بعض دراساتهم ونظرياتهم المثالية لصالح الواقع ووحدة الجماعة واجتذاب الفتنة، دون أن يستغنوا عنها نظرياً في مؤلفاتهم.

وفي خاتمة البحث نقول إن معاوية كان بلا ريب كُفْؤاً وصالحاً لمنصب الخلافة إلا أنه مضطراً كثيراً ما كان يستند على القوة والدهاء في الحكم وذلك لأجل الأسباب المشار إليها. لقد فهمت القيادة العلمية الظروف التي أفضى الحكم فيها إلى معاوية فبايعته كارهة واعترفت بشرعية حكمه متوقعة أنه هو الحكم المؤقت في دوامه ومن ثم في نفوذه. ولكن، لما عزم معاوية على أن يبايع لابنه يزيد بولاية العهد توترت وتأزمة العلاقات بين القيادتين السياسية والعلمية لأن القيادة العلمية رأت في ذلك انتصار واستحكام سياسة معاوية ثم انهزام وزوال السياسة الراشدة. ومنذ تلك اللحظة، ولا سيما بعد ما تمت البيعة بولاية العهد، بدأت الفجوة بين الطرفين تتسع أكثر فأكثر بحيث إن مقتل الحسين بن علي فور وفاة معاوية ثم خروج أغلبية سكان الحجاز مع عبد الله ابن الزبير على يزيد بن معاوية يُعتبران من العواقب الأولى لتلك التطورات.

والفصام بين القيادتين السياسية والعلمية، بعد أن تحقق لاحقاً، صار من أشد العوامل تأثيراً في ضعف وتدهور وتمزق المجتمع الإسلامي، كما صار أساساً مهماً لتراجع الطاقة الهائلة التي فجرها الإسلام في نفوس الناس والأمم، كما قال الدكتور عبد الحميد أبو سليمان.[180] وقد أدى هذا الفصام أيضاً إلى جهل القيادة السياسية لحاجتها في وجود قاعدة فكرية تخدمها وتواكب معها المتغيرات وتمدها بالفكر والسياسات والبدائل، بحيث إن القيادة السياسية تحولت –نتيجةً لذلك– إلى سلطة مستبدة تأخذ الناس بالقهر والخسف، ولا يكون للشورى ومشاركة الأمة نصيب في تسيير شؤون الأمة وتوليد قناعاتها وطاقة بذلها وعطائها.[181]

---

180 الدكتور عبد الحميد أحمد أبوسليمان: أزمة العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الغسلامي، 1991: ص47.

181 المرجع نفسه: ص49.